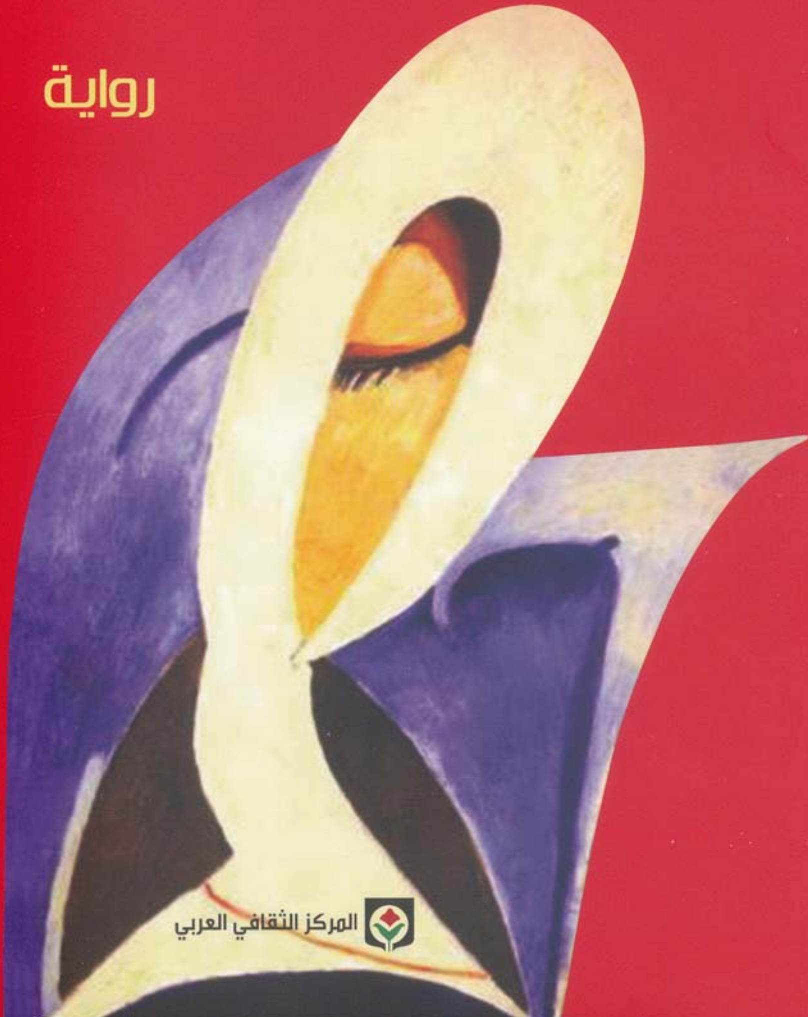
حجي جابر

لعبة المِغزل

رواية



المركز الثقافي العربي

حجي جابر

لُعبة المِغزل

رواية

المركز الثقافي العربي

حجي جابر

لُعبة المِغزل

الكتاب

لُعبة المِغزل

تأليف

حجي جابر

الطبعة

الأولى، 2015

عدد الصفحات: 208

القياس: 14 × 21

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-783-4

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 303339 0522 ـ 307651 0522

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

إلى حبوبة حليمة، التي غادرتْ هذا الصباح . .

وإلى مِغزلها العاجيّ . .

وإلى جابر . . دائماً .

«لا يتغيّر الإنسان دون عذاب؛
لأنه النحّات والمرمر في آنٍ معاً»

أليكسيس كاريل

الشريط الأخير

لليلة الأخيرة دائماً مذاقٌ مختلف!

لم تكن واثقةً تماماً من مشاعرها. بدا الأمر ملتبساً للغاية. هذه اللحظة التي انتظرتْها طويلاً، جلبتْ معها حيرة لا تنتهي؛ هل ما زال شعورها صافياً، أم خالطته نقائضه؟

في محاولة لتبديد ارتباكها؛ رشّت على عنقها قليلاً من عطر جديد، وتابعَت انعكاس رذاذه على المرآة. أعجبها هذا الصخب الذي أثاره العطر في غرفتها الساكنة، رشّت المزيد حتى غام وجهها بين الرذاذ. كانت تشعر بألفة مع العطر الجديد، وهي التي لم تبدّل يوماً عطرها الذي اعتادته. كانت تؤمن أن للأنثى عطراً واحداً يُشبه مزاجها الذي تتألق فيه، وما عداه غبش يحجب ملامحها. العطر حالة عُلوية تتجاوز الجسد لتعانق الروح، والروح لا تملك أن تُعانق غريباً لا يُشبهها.

لكنها اليوم أمام لحظة مختلفة لا تُشبه أيامها السابقة، أمام لحظتها الأسمى، ما جعلها تبحثُ عن حالة جديدة تلائم مزاجاً لم تعهده. ولم يكن بمقدور شيء أن يفعل ذلك سوى عطر جديد، عطر لم تجهد في اختياره، أشارتْ فقط من بعيد إلى

قنينة زهرية، أراد البائع أن يسكب قليلاً منه على يدها كي تختبره، لكنها أخذته دون أن تشمّ رائحته. وضعته في حقيبتها على عجل كمن يُخبّئ مفاجأة سارة لنفسه. كان هذا ما تريده بالضبط؛ أن تُدخل غريباً إلى غرفة نومها، أن تُحيط سريرها بغموض رائحة لا تعرفها، أن تواجه مصيراً لا تعبأ بالقلق منه.

نظرتْ إلى ساعتها. كان لا يزال أمامها وقت كافٍ، فراحتْ تبذله في الاعتناء بالتفاصيل؛ أمام المرآة، مرّرتْ إصبعها على حوافّ شفتها العليا، وهي تضبط مسار أحمر الشفاه. أزاحتْ غرّتها يميناً، لكنها انتبهتْ إلى أنّ هذا ما تفعله عادة، فأعادتْ إمالتها في الاتجاه الآخر. ثبّتتْ قلادتها بحيث تنتهي عند فتحة صدر فستانها الأصفر الطويل.

كانت مزْهوة بفتنتها الطاغية، تحبُّ لونها الخلاسي اللاهب، وقوامها الفارع النابت من عمق التراب الأفريقي. مغرمة هي باستداراتها السافرة، وانحناءاتها الغَنِجة. وكانت ممتنة لمرآتها القادرة على استدعاء كل هذا البذخ دفعة واحدة.

أطالَت النظر. هذه المرّة لم تكنْ تنظر إلى نفسها، كانت تنظر إلى المرآة، إلى الكائن الذي يشاركها غرفتها الضيقة ذي النافذة الوحيدة، وعوارض السقف الخشبية. كان يستهويها دائماً أن تنسج حواراً صامتاً مع مرآتها. تنشغل بتأمل تجرّد المرايا وهي تهَب وجودها للآخرين. لا أحد ينظر في المرآة لذاتها، الكل يبحث عن ذاته فيها، عن صورته الصادقة.

لكن هل هذا أقصى ما تستطيعه المرآة؟

ماذا لو كان بمقدورها أن تُعرّي دواخلنا كما تفعلُ مع ملامحنا الظاهرة؟ أن تكشف ما نُخبئه تحت جلودنا؟ ما نُخبئه عن أنفسنا قبل الآخرين؟ هل سيستمرّ حينها تصالحنا المريح معها؟

أعجبتها الفكرة الأخيرة، لكنها لم تعرف إذا كانت ترغب في ذلك بالفعل.

شارفت الساعة على الثامنة مساء، فحملتْ حقيبتها على عجل وهي تُودّع مرآتها بابتسامة ناعمة.

كانت المسافة قريبة من بيتها إلى ميدان مَسْكرّم حيث تتوقع مروره. عاد إليها ارتباكها وهي تُغادر عزلتها إلى ضجيج الناس. لم يكنْ يخطر ببالها أن موعدهما الأول في أسمرا سيكون محفوفاً بالشهود والعيون المتلصصة. لكنها بذلك كانت تفي بانقيادها التامّ للحظتها المختلفة؛ حيث يمضي كل شيء على غير اعتياد.

اقتربتْ من الميدان، فازداد ضجيج الناس وقد ملأوا الجنبات. كان شاغلها أن تجد مكاناً قريباً منه. تمنّتْ لو تستطيع الوقوف في وسط الميدان، بحيث يمرّ أمامها تماماً، يصطدم بها، يخترقها وهو يعبر طريقه الممتدة من مَسْكرّم إلى آخر سيتي بارك.

زاحمَت المصطفّين حتى بلغتْ أقرب نقطة تستطيعها. خمّنتْ أنه يستطيع رؤيتها بوضوح من مكانها هذا، بينما كانتْ

قادرة دوماً على رؤيته مهما بعدَت المسافة بينهما. لم يتبقَّ لها إذن إلا التعويل على عطرها الجديد كرسول غريب تبعث به إلى قوم لا يعرفونه، دون أن تفقد ثقتها في قدرته على هدايتهم جميعاً.

بلغ الحشد ذروته بحلول الثامنة والنصف، بينما أخذ الضجيج يخفتُ مع اقتراب لحظة قدوم الرجل. وحده وجيب قلبها كان يعلو ضاغطاً على أنفاسها، وكأنه العدّ العكسي لما انتظرته طويلاً.

من بعيد ظهر الرجل الفارع أخيراً، ظهر رجلها. لم يكن وحده، بدا محاطاً بثلّة من حرّاسه وهم يجهدون في تتبّع خطواته السريعة. حاولت الاقتراب أكثر، لكنّ جنديّاً وقف في وجهها بملامح صارمة، فاستكانتْ في مكانها. عاد الضجيج أقوى مع تلويحه للمصطفّين في الميدان.

مع اقترابه أكثر، غرستْ عينيها في مشيته، في قوامه الذي لطالما وقعتْ أسيرة اعتداده، في شاربه الكثّ. لمحَت ابتسامته التي تعرفها جيداً، دون أن تُدرك إن كانت لا تزال تُحبّها أم لا. بدأتْ ترى انعكاس الأضواء في عينيه اللامعتين. شعرتْ بقربه، بدقّات قلبه المنتظمة تحفرُ في جوفها.

كان يشقّ طريقه وهو يُلوّح بيده، يُوزع نظراته على الجانبين دون أن يمنحها لأحد. وكانت لا ترى غيره. ذاب الناس في شخصه. تلاشى صخبهم واستحال همهمات بعيدة. لكنها لا تزال عاجزة عن القبض على حقيقة إحساسها. كانت تريده

وحسب. تريدُ الرجل الذي انتظرته العمر كله، وقد اختار أن يأتي بطريقته الخاصة، لكن متأخراً جداً، في الليلة الأخيرة.

ولليلة الأخيرة دائماً مذاقٌ مختلف.

غفل الجنديّ قليلاً مع مرور الموكب أمامها، فانسلّتْ من أمامه، وركضتْ بأقصى طاقتها. لم يكنْ يفصلها عن رجلها سوى أمتار قليلة، لكنّها أحسّتْ بها مشواراً لا ينتهي. كانتْ تركض باتجاهه غير أنّ الزمن بدا متوقفاً.

كانتْ تنظر في عينيه تماماً، كسهم لا يُضيّع هدفه. أرادتْ أن تصل إليه في أبهى زينتها، ألّا تفقد شيئاً ممّا أعدّته لليلتها الأخيرة؛ فستانها الأصفر الطويل، حقيبة يدها، وقلادتها المنتظمة في نحرها. أرادتْ أن تصله مكتملة؛ بقوامها الممشوق، وأحمر شفاهها، والعطر الجديد، فلا يتخلّفُ شيء منها عن لحظتها المنتظرة.

التفتَ إليها، فالتقَت العينان أخيراً.

نظرتها اللاهثة عانقتْ صقيعاً تعرفه في عينيه. مدّتْ يدها باتجاه رقبته. لم تكنْ ترغبُ أبداً في يده، تجنبتْ ملامسة أقسى ما فيه، لم تشأ أن تعبثَ في سرّ عظمته. مدّت يدها العارية كي تستأثر بلحظتها، كي لا يشاركها شيء لذة الالتحام برجلها.

لامستْ رقبته، فتغيّرت نظرته، استحال صقيعها إلى لهب يتأجّج. رأتْ لأول مرة نظرة مذعورة فشعرتْ بالزهو. تذكرتْ عطرها الجديد وهو يقابل في رجلها خوفاً لم تعهده. أعجبها

لقاء الغرباء هذا. أيقنتْ أن ما يحدث يليق بليلتها الأخيرة حتى وهي تتلقى سيلاً من الطلقات. تواطأ الرصاص معها وهو يخترق صدرها بهدوء بحيث لم يصرف انتباهها عمّا جاءتْ من أجله. حاولتْ أن تتشبث بالرجل أكثر، أن تلتحم به كما حلمتْ دائماً، غير أنها بدأتْ تفقد إحساسها بيدها. عاد الزمن إلى الحركة فأفلتتْ رقبته. عادَت الهمهمات من حولها. كانتْ تسقطُ دون أن ترفع عينيها عنه. سحبه حرّاسه بعيداً، غير أن الهلع كان لا يزال يستوطن عينيه.

سقطتْ على الأرض، فارتبك هندامها؛ فقدتْ حقيبتها، وغاص فستانها الأصفر في الدماء. وحده العطر الجديد ظلّ معها يظلِّلها كغيمة حنونة. شعرتْ بالرضا، أراحها الذعر الذي أسكنته عينيه. أحسّتْ أنها قذفتْ في رجلها نطفة ستكبر في أحشائه لترافقه طوال ما تبقى من عمره. أحسّتْ أنها بذلك أصبحتْ عصيّة على النسيان، سكنتْ ذاكرته، فابتسمتْ برضا، وأغمضتْ عينيها بهدوء.

الشريط الأول

(1)

هذه الحياة مُملّة أكثر مما ينبغي..

هكذا حدّثتْ نفسها وهي تفتح عينيها بصعوبة، يهدّها إرهاق ليلة لم يزرها النوم فيها إلا لماماً. قاومتْ لتنهض وتلحق بأول يوم في وظيفتها الجديدة، دون أن تُغادرها الرغبة في إكمال نومها، وإلغاء فكرة العمل تماماً، لكنها عادتْ وفكّرتْ أنها بذلك ستغرق مجدداً في حالة الملل، وهي تُحاول جاهدة الخروج منها. شعرتْ أن الوظيفة الجديدة ضاجّة بالحياة منذ اللحظة الأولى لقبولها فيها. صحيح أنّها لم تكن ترغب في العمل خلف مكتب صغير وجهاز كمبيوتر، رفقة أناس لا تعرفهم، لكنّ تقدير مديرها لقدراتها، سهّل الأمر، حيث عيّنها في أحد أقسام الدائرة المهمة.

رأت الغيرة في أعين زملائها وهم يسألونها عن خبراتها، حين رأوا الفتاة صغيرة السن، رفقة مساعدة المدير وهي تُطلعها على مكتبها الجديد ومهامها التي لا تختلف كثيراً عن مهامهم. لا شكّ لديها أنهم يعتقدون أنّها حازتْ هذه الوظيفة بناءً على

مفاتنها، وليس لأمر يتعلّق بالمؤهلات، لكن لا بأس، فليس ذنبها أنّها فاتنة، وهم مجموعة يغمرهم القبح. كان يجدر أن يُسعدهم الأمر، لكنها تعرف تماماً أنّ الناس لا تكتمل متعتهم بالجمال ما لم يمتلكوه.

كانتْ واثقة من اجتيازها لاختبار القبول، لكنّها لم تتوقع أن ينقلها المدير إلى وظيفة غير التي تقدمتْ إليها مع عدد كبير من المتقدمين.

«ليس من العدل أن تعملي في هذا القسم المتواضع، فنحن هنا نُقدّر أصحاب المواهب العالية. ستعملين في قسم أُشرف عليه شخصياً، كما أنّه قريب من مكتبي».

ابتسمتْ بغنج وهي ترى نظرة المدير اللئيمة وهو يفتل طرف شاربه، وقد أدركَت المواهب التي يقصدها. ها هو أحمق جديد ينضم إلى طابور الحمقى الذين يدورون في فلك جمالها، لكنّ الأمر لا يُزعجها كثيراً؛ فبدون هؤلاء كانتْ ستُحرم متعة الإحساس بحضورها الطاغي أينما حلّتْ.

كانت الدائرة حديثة التأسيس مخصصة لأرشفة وثائق الدولة إلكترونياً. وهي وثائق كتبها مناضلو حرب الاستقلال كيوميات عن أنفسهم، أو عن زملائهم، أو القليل مما كُتب من الأوامر والرسائل الرسمية، إذ كان يُعمد إلى تجنب التعليمات المكتوبة ما أمكن. أطنان من الورق المهترئ المصفرّ، كان يتوجب إدخالها إلى «السيستم»، بحيث تكون متاحة في أيّ وقت بضغطة

زر. ولم يكن مطلوباً في الظاهر من شاغلي هذا العمل إلا إلمام بسيط بالتعامل مع الكمبيوتر. غير أنّ المتقدمين لهذا العمل كانوا يمرّون بالكثير من التدقيق، لضمان عدم استغلالهم لما يطّلعون عليه بطريقة تُضرّ بأمن البلاد.

فقد علمَت الفتاة أنهم وقبل قبولها، فحصوا سجلها الجامعي، زاروا كلية الفنون التي قضت فيها أربعة أعوام مضطربة. التقوا بعض أصدقائها، المقربين منهم والأعداء. عرفوا عنها كل شيء تقريباً؛ كيف نشأت يتيمة في كنف جدّتها، وكيف قضت طفولة ناقصة دفعتْ بها نحو الانطواء، قبل أن يُنقذها عالم الرسم الذي لأجله أكملت دراستها، وخرجت إلى الحياة مجدداً. كل هذه الأمور السيئة بالنسبة لها، كانت فيما يبدو حافزاً للدائرة ليتمّ قبولها سريعاً، فكلما قلَّت ارتباطات الواحد، بدا مناسباً أكثر. هذا ما عرفته تالياً.

ومع كل هذا التدقيق فقد كانت الدائرة تُعيّن المتقدمين الجدد مثلها في أقسام لا تتعامل بشكل مباشر مع الوثائق، على أن تتمّ ترقيتهم إلى الأقسام الأكثر أهمية بمجرد إثبات ولاء مطلق وقدرة كبيرة على حفظ الأسرار، وهذا يتطلّب وقتاً طويلاً. وهو ما لم يحدث معها على أيّ حال، فقفزتْ عدة مراتب لتعمل في أهمّ أقسام الدائرة وأكثرها حساسية.

خرجتْ من غرفتها لتجد جدّتها لأمّها وقد أعدّتْ لها قهوتها المفضلة.

كان هذا أكثر ما تحتاجه في هذه اللحظة. لا تكفّ هذه

المرأة عن مساندتها حتى في أدق تفاصيل حياتها، ولا تعرف كيف كان سيبدو كل شيء دون تلك المساندة.

لجدّتها الفضل في رعايتها بعد استشهاد والديها، لكنّ الأمر لا يتعلّق هنا فقط بما تقوم به الجدّات تجاه أحفادهن؛ فقد ساهمتْ كثيراً بحكاياتها في تخفيف شعور الفتاة بالسأم في هذه المدينة الباردة، رغم انشغالها بالسفر إلى القرى المجاورة، وتوزيع بعض ما تخيطه من ملابس على المرضى والمعوزين.

أغرقَت الجدة حفيدتها بالدلال، هذا على الأقل ما تسمعه ممّن حولها. يقولون إنه وفي سعي الجدّة لتعويضها عن فَقد والديها، كبرتْ وهي تعتبر كلّ ما تريده حقوقاً، وأن ما تسعى إليه يكتسب أهميته من رغبتها فيه مهما بدا تافهاً وبسيطاً، رغم أنها في المقابل سرعان ما تملّه بمجرد امتلاكه. لم تكن تُغضبها تلك التعليقات، ولم تسعَ يوماً لإثبات العكس. هي تعرف أن الغيرة تأكل قلوب مَن حولها، ولم يكن ذلك يستحق الالتفات.

لم تكن الجدّة تُشبه حفيدتها؛ فقد كانتْ صحيحة الجسد، شديدة البياض، ولولا أنفها الأفريقي الأفطس، وشعرها الأجعد الكثيف المعقود عادة على شكل مقونان(*)، لبدتْ سليلة عرق وافد من البعيد. ولم يكن من السهل أمام الفتاة أن تُحدّد حجم الشبه بين جدّتها ووالدتها، فلم يبقَ في ذاكرتها شيء من أمّها

(*) الطريقة التي ينعقد فيها الشعر على شكل جدائل متموّجة من منبته إلى منتهاه.

التي غادرتْ بعد الأب بقليل، وقبل بلوغ ابنتهما الثالثة من عمرها، دون أن يتركا صورة تسند الذاكرة في مواجهة الزمن، وليقطعا بذلك آخر الخيوط التي كان بإمكانها أن تصل الفتاة بعائلتها الصغيرة. هذا الأمر لم يكن بالنسبة إلى الفتاة سيئاً تماماً؛ فبقدر ما تمنّتْ أن تستحضر صورة أبويها، بقدر ما حيّد غياب الصور مشاعرها بعض الشيء تجاه فقدهما المبكر. وحدها رؤية الأطفال صحبة آبائهم كانت تستدعي حرمانها، عدا ذلك لم تكن تعبأ كثيراً بهذا الغياب، بل كانت أحياناً تسخر منه بتلذُّذ، قبل أن تعود في مرات أخرى لتبكي بحرقة غير مفهومة. وفي كل ذلك، كانت الجدّة حاضرة لتعوّض احتياجها.

الجدّة التي تقضي معظم يومها في العمل على ماكينة الخياطة، كانت بارعة في سرد الحكايات، ولعلّ انخراطها المبكر في النضال جعلها تغرفُ من ذاكرة لا تنتهي. وكان هذا كافياً ليصبغ مساءات أسمرا الرتيبة بالوهج. كانت الفتاة تقضي برفقتها ساعات المساء الطوال، تملأ روحها بالحكايات. تتشرّب ما حدث وما لم يحدث. فبراعة الجدّة تتجاوز سرد ما جرى، إلى تفاصيل لا يمكن نسجها إلا عبر خيال خصب. وكثيراً ما كانت تُغيّر سريعاً في مسار الحكاية إذا لم ترَ الدهشة في عين حفيدتها؛ تُبدّل النهاية، أو تحقنها بالإثارة أكثر. تحضرُ في حكايات، وتغيبُ عن أخرى. لكنها تحتفظ دائماً بقدرتها على سلب اهتمام حفيدتها حتى النهاية.

دائماً ما كان يخطر لها أنّ حياة جدّتها العريضة لا تكفّ عن

مدّ حكاياتها بالغنى، فهي تنقّلتْ بين مدارس البعثات التبشيرية، ثم المدارس الإيطالية التي ظلّتْ في أسمرا بعد رحيل أصحابها، قبل أن تتخرج في جامعة أديس أبابا.

كثيراً ما تمنَّت الفتاة أن تمتلك قدرة جدّتها على الحكي، أن تُجاري هذا الدفق غير المنتهي من التفاصيل. فهذا كفيل بأن يُغيّر طعم وجودها، أن يقذف بالحياة في غرفتها الميتة، التي لا تبارحها إلا لحكاية جديدة.

غرفتها مليئة باللوحات، فالرسم هو كل ما تفعله حين تجلس بمفردها، لكنّ اللوحات كائنات لئيمة، تُبادلك الحياة طالما تعمل عليها، وما إن تنتهي، حتى تَرْكِنُ إلى الموت، ولا يُعيدها إلى الحياة إلا إحساسك بها. عدا ذلك قد يستدرجك سكونها إلى منطقتها الميتة. على خلاف الحكايات التي تحتفظ بالحياة في حضورها والغياب. الحكايات لا تعرف السكون، فهي في حركة دائمة؛ من الشفاه إلى القلوب، إلى الملامح، إلى الهواء، إلى شفاه أخرى، وقلوب أكثر.

خزانة ملابسها الخشبية تحتلّ ما تبقى من الغرفة وتُخفّف من سكونها كثيراً. يُعجبها تأمل فساتينها المتراصّة خلف بعضها. الفساتين التي تخيطها الجدّة ببراعة تفوق ما تتخيله الفتاة وهي تختار تصاميمها في البداية. حين تنظر إلى الفساتين، يُخيّل لها أنّ كل واحد منها يحاول استمالتها، إغراءها. تقع في حيرة لذيذة حين تُفاضل بين الأصفر الطويل، أو الأحمر الذي يكشف بهاء ساقيها، أو الأسود عاري الظهر. تُحبّ أقراطها العاجية

أيضاً. الكبيرة منها، حين تتدّلى بغنج، وتحتكّ بخدّها بلطف مع كل التفاتة، فتخلق موسيقى لا يسمعها غيرها. تُحبّ الصغيرة أيضاً حين تندسّ خلف شعرها كسرّ حميم لا يطّلع عليه الغرباء. لفرط ما تبثه الخزانة من طاقة في روحها، استغنت عن أبوابها، جعلتها عارية، مشرعة كالنوافذ المُطلّة على مناظر مشتهاة.

بدتْ في كامل أناقتها وهي تقف أمام مبنى الدائرة المكوّن من ثلاثة طوابق مصبوغة ببرتقالي متآكل، والمقابل تماماً لبناية البريد المركزي وسط المدينة. صعدَت السلالم بخفّة وهي تراقب أعين المارة تلتهم ما كشفه فستانها القصير، وتطرب للموسيقى المنبعثة من كعبها العالي وهو يطرق بخفّة العتبات الحجرية للمبنى العتيق الذي تركه الإيطاليون خلفهم بكامل سطوته.

دلفتْ إلى المكتب الواقع في الطابق الثاني، فاصطدمتْ بأعين زملائها المتطفّلة. كانوا ثلاثة رجال وسيدتين. وُضع مكتبها إلى جوار السيدتين، بتوصية من المدير الذي لم يرد لها فيما يبدو أن تجلس بقرب أحد الرجال، لكنّ هذا جعلها في مرمى نظراتهم الجائعة.

أحبّتْ مكتبها، فهو يقع تماماً أسفل نافذة كبيرة، يُخفّف الهواء القادم عبرها من رائحة العطن التي تبعثها الأوراق القديمة في المكان، ويُبدّد الكآبة التي ينفثها اللون الرمادي، وهو يصبغ الجدران والطاولات من حولها.

لم يكن المكان يشي بالإثارة المنتظرة، الألوان والرائحة، وحتى الصمت الغالب عليه، كل ذلك كان أقرب إلى الرتابة التي

جاءت الفتاة هاربة منها. لكنها لم تشأ أن تستعجل في الحُكم. ستمنح تجربتها فرصة وافية.

قبل ذلك كانت قد جالتْ سريعاً في المكان رفقة مساعدة المدير. البداية كانت من الطابق الأول.

«في هذا القسم تجدين مكتبة يرتادها الباحثون وأغلبهم طلاب جامعيون. هنا قسم الترجمة، وإلى جواره مخزن الدائرة الرئيس».

بدتْ مساعِدة المدير على عجلة من أمرها وهي تُطلع الفتاة على مرافق المكان، كانتْ تمرّ سريعاً على الأقسام دون منحها فرصة التعرّف عليها جيداً، ومع هذا فقد تسلّلت إليها برودة المكان، ملامح أصحابه الجامدة حين يردّون على تحيّتها بلا مبالاة. جدرانه العالية والسكون الذي يصبغ الردهات كانا يمنحان المكان هيبة فاترة. بدت الدائرة كوحش نائم، أو يتثائب على أقلّ تقدير.

«هنا مكتب المدير. صحيح أنه في الطابق الثالث، لكنّ الرجل لا يكاد يستقرّ فيه لفرط ما يراقب عمل جميع الأقسام. هنا مكتبي. هناك مخزن آخر لكنه مؤقت على خلاف ما رأيناه في الأسفل. تلك غرفة الساعي. تعالي لأريك الطابق الثاني حيث يقع مكتبك».

طوال الممرات، كانت اللوحات تملأ الجدران؛ صور السيد الرئيس، صور قديمة لمعارك الاستقلال، خرائط جغرافية

للبلد، عبارات ثورية زال الحبر عن كثير منها، فبدا الكلام مُبهماً.

ما إن استقرّت خلف مكتبها، حتى تسابق الرجال الثلاثة على تقديم خدماتهم، تحت وقع نظرات السيدتين الحانقة. أحدهم، وقد عرفتْ أنه رئيس القسم، بادر بوضع خبرته الطويلة في الأرشفة تحت تصرفها، وهو يرمقها بعينين جائعتين ترمش كثيراً، والآخر قدّم لها نسخته الوحيدة من كتيّب يشرح بعض المصطلحات الصعبة التي قد تواجهها أثناء طباعة الوثائق، فيما بدا الثالث خائباً بعد أن سبقه رفيقاه إليها، فلم يجدْ غير أن يعرض عليها إيصالها إلى العمل كل يوم بسيارته الجديدة. وحده الساعي الطاعن في السنّ كان خارج هذا التكالب، يمرّ عليهم، يضع أكواب الشاي والقهوة، ويغادر بصمت كما جاء. كثيراً ما شعرتْ أنه الوحيد الذي يستلطفها دون أن يقتحم حياتها.

اكتفتْ بابتسامة مقتضبة، وهي تشكر زملاءها. كأي أنثى يُشعرها الإطراء بالزهو، تطرب لنظرات الرجال الهائمة، لرغباتهم المكبوتة الحارقة. لكنها تكره أن يأتي ذلك بغباء، باندلاق طفوليّ. تُحبّه ناضجاً، ذكيّاً، يمرّ عبر الكلمات، دون أن يحتلّها بفجاجة فاقعة. لهذا لم تشعر بكثير امتنان للطف زملائها، لتكالبهم عليها كغنيمة مشاع. هذا يدخل في حدود اعتيادها المؤذي. هنا يغدو الأمر مُنفّراً، فيصبح ما يُقدّمه جمالها للآخرين، أكثر بكثير ممّا باستطاعتهم تقديمه لها.

كثيراً ما خطر لها أنّ جمالها قد يكون سبباً في سأمها

الدائم، فهو يُحيطها عادة بالحمقى، بمن يريدونها، دون أن يجذبها شيء فيهم. لكنّها مع هذا تُحبّه، تحبّ جمالها الذي يشرِّع أمامها كل الأبواب.

كان اليوم يبتدئ في التاسعة صباحاً بأن تجلب مساعدة المدير حزم الأوراق المتآكلة لرئيس القسم، الذي يقوم بتوزيعها على موظفيه. لاحظتْ أن نصيبها أقلّ من الآخرين. ولم تكن وحدها مَن لاحظ ذلك، فقد رأته في أعين السيدتين إلى جوارها. لاحظتْ كذلك أنّ كل حزمة مربوطة بشريط ملوّن، إضافة إلى طابع من اللون نفسه أعلى كل وثيقة. فكانتْ حزمتها هي والسيدتين محاطة باللون البنيّ، بينما أحيطتْ حزمتا رجلين باللون الأصفر، وكان اللون الأحمر من نصيب الحزمة المخصّصة لرئيس القسم، الذي كان يعود ليجمع كل الأوراق مع نهاية اليوم.

علمتْ أن للألوان علاقة بأهمية المحتوى. وتأكدتْ أكثر حين قرأتْ أولى أوراقها البنيّة، فلم تجدْ شيئاً مثيراً. كانت الورقة تحكي عن شحنة سلاح روسيّ استولى عليها الجيش قبل وصولها إلى وجهتها بعد معركة قصيرة مع العدو. شرعتْ في الكتابة، فبدا أن الجميع يفوقونها في سرعة الطباعة.

«لا عليكِ، ستتطور سرعتكِ مع الوقت. كلنا مررنا بهذه المرحلة».

أراحها تعليق رئيس القسم وهو يرمش بارتباك، دون أن تمنحه أكثر من ابتسامة فاترة.

مع نهاية اليوم كانتْ قد أتمّتْ طباعة أربعة مستندات لا تختلف كثيراً في تفاصيلها؛ بطولات الجيش في مقابل الهزائم المذلّة بحق الأعداء. بدأ يتسلل إليها السأم، فما بدا لها عملاً حيّاً ها هو يُشبه حياتها، وقد نخرته الرتابة أكثر. لكنّها مجدداً لم تلتفت إلى هذا الخاطر معلّلة النفس أنّ كل شيء لا يزال في بدايته.

حملتْ حقيبتها وهمّتْ بالخروج، فوجدتْ زميلها يكرّر عرضه بإيصالها إلى منزلها. اعتذرتْ بضيق، وغادرتْ مسرعة مبنى الدائرة.

الشريط الأول

(2)

الأيام التالية لم تكن تحمل شيئاً مختلفاً.

كانتْ تُعامَل بلطف بالغ من قبل المدير ورئيس قسمها، وسط غيرة زملائها الباقين، لكنّ شعورها بالاعتياد كان أقوى. لم يتغيّر شيء غير تحسّن بسيط في سرعة طباعتها وَجَد إشادة كبيرة من الرجلين، لكنّ ذلك أيضاً لم يلامس ما كانتْ ترجوه. فما تفعله كل يوم أصبح معروفاً؛ وثائق متشابهة، وتفاصيل مملّة، تعود بعده إلى منزلها حيث تحاول الجدّة غسل رتابة يومها بحكاياتها المتدفقة.

منزلها صغير بطراز قديم لكنّه أنيق. طابق واحد، سقفه المائل من القرميد الأحمر، وحوافّه الأرضية مدعّمة بخشب الصنوبر، وله حديقة صغيرة يحيطها سور منخفض، اعتناء الجدّة اليومي بها جعلها ملفتة للنظر. المنزل يقع في الجهة الشمالية من ترافولو، الحيّ الذي هام فيه الإيطاليون، وكان آخر ما غادروه، قبل أن يخصّصه الأثيوبيون لكبار قادتهم العسكريين، ثم حين جاء الاستقلال وزّعَت الحكومة معظم مبانيه على قدامى المحاربين، وكان هذا المنزل من نصيب جدّتها.

لم تكن المخصّصات التي تُوزعها الحكومة على قدامى المحاربين كافية، لكنّ الجدّة كانت تتدبّر ما يكفيها ويكفي حفيدتها من عملها على ماكينة الخياطة العتيقة من ماركة «ستوكي» الإيطالية، اشترتها بربع قيمتها من أبناء عجوز إيطالية قرروا العودة إلى بلادهم بمجرد وفاة والدتهم.

كان للماكينة الحديد السوداء هدير يرجّ الطاولة الخشبية الكبيرة التي ترتكز عليها، ما إن تضغط الجدّة على دواستها، وتُدير بكرتها بيدها في الوقت عينه، لكن هذا الصوت المزعج بات مألوفاً لفرط ما يتكرر كل يوم. حتى إن الفتاة أصبح بإمكانها سماع الجدّة بوضوح، وقد اعتادتْ أن تحكي وهي تُمارس عملها المحبّب.

لا يُنافس الستوكي، إلا المِغزل العاجيّ ذو النهاية الحادّة المعقوفة، وبكرات الصوف الملوّنة. تلجأ لهما الجدّة حين تودّ تحريك يديها دون انتباه، لكن باستمتاع كبير. برشاقة تخيط أغطية وبلوفرات وشالات، توزّعها على المرضى الذين تزورهم في العاصمة وخارجها. يبدو الأمر عشوائياً، وهي تمزج بين الألوان، لكنّ النتيجة النهائية تبدو دائماً مبهرة. كثيراً ما حاولَت الفتاة تعلّم الغزْل، جهدتْ للإمساك بعصاتَي المِغزل الرفيعتين دون جدوى. ما إن تمسك بإحداها، حتى تفلت الأخرى، وحين تتمكّن منهما، تسقط البكرة، وتتدحرج بعيداً، ناثرة خيوط الصوف في كل مكان، وسط ضحكات الجدّة. كان الأمر يُشبه كثيراً الطريقة التي تسرد بها الجدّة حكاياتها، ثمة براعة في

الإمساك بجوانب القصة من كلّ اتجاه، بحيث لا تنفرط خيوط الحكاية حتى النهاية.

في أحد المساءات، كانت شهية جدّتها مفتوحة للحكي، كالعادة. لم تكن تكتفي بسرد الحكاية، بل تتمثّلها بملامحها وحركات يدها. بينما كانت الفتاة نصف شاردة، تنتبه لجدّتها حيناً، قبل أن تغرق في البحث عن مخرج للرتابة التي أضافها العمل إلى حياتها الفاترة أصلاً.

رافقتها الحكايات منذ وعيها الأول. كانت الجدّة تُهدهدها بحكايات مُغنّاة حتى تنام. لم تكن تعي ما تسمعه، لكنها اعتادته. اعتادَت اللحن والكلمات المبهمة، حتى صار من غير الممكن أن تنام دونها. حين كبرتْ قليلاً أصبحتْ تُقلّد جدّتها، تُمسك برأسها، تعبث بشعرها، وتحاكي لحنها بتأتأة متقطّعة، فتتظاهر الجدّة بالنعاس، وتغرق الطفلة في حبور بالغ. وتنام.

حين دخلَت المدرسة كان وعيها بحكايات جدّتها قد تشكّل قليلاً. صارتْ معنيّة بالأشجار، والماء، وحجارة الطريق. تتحدث إليهم، وتسمعهم. ثم تنقل ما جرى لجدّتها التي تسمعها باهتمام. وكانت تستغرب لسخرية المارّة من حواراتها الطويلة. استغربتْ أكثر من تعليقات معلّمتها التي تُثير ضحكات زملائها، حين تضبطها متلبسّة بالحديث مع كتابها وأقلامها، أو طاولتها الصغيرة.

أخبرتها الشجرة الكبيرة في باحة المدرسة يوماً أنها ترى حريقاً هائلاً في الصفوف العليا. نظرتْ إلى الأعلى، لكنها لم ترَ

شيئاً، فقد كانتْ قامتها أقصر من الشجرة بكثير. هرولتْ من فورها وأخبرتْ معلّمتها التي هرعتْ إلى إخراج التلاميذ من فصولهم، قبل أن تعود إليها غاضبة وهي تصفُها بالكاذبة. لم تكن تكذب، كانت تنقل فقط حديث الشجرة الكبيرة في باحة المدرسة. ولم تكن الشجرة بدورها تكذب، هي ترى أكثر من الآخرين، لا أحد يستطيع رؤية ما تراه الشجرة الكبيرة. عادتْ إلى بيتها حزينة، ومن وقتها توقفتْ عن الحديث إلى الأشجار وإلى حجارة الطريق خشية أن يراها أحد فيخبر معلّمتها.

دون مقدمات خَطَرَ لها مباغتة الجدّة وقطع استرسالها:

«كيف كانت ستبدو حياتكِ دون هذه الحكايات؟».

صمتَت الجدة قليلاً وهي تنظر إلى الأعلى، عادتها التي لا تُفارقها وهي تُفكّر، قبل أن ترسم على وجهها ابتسامة خامدة، وهي تُجيب أنها لم تكن لتحيا إلى هذا العمر لو لم تسندها الحكايات.

تمنَّت الفتاة لو تُصبح مثل جدّتها؛ لو تهتدي لما يسند حياتها، ويمنحها معنى. خطر لها أنّ كثيرين مثلها، يغرقون في التعاسة فقط لأنهم لا يحُسنون التقاط ما يُعينهم على هذه الحياة.

هذه الرغبة الطامعة في الحياة لم تكن تستمرّ مع الفتاة كثيراً، فعادة ما يخطر لها أنّ الحياة لا تستحق أن تؤخذ بجديّة عالية، هي بنظرها مزحة لا تُثير الضحك، ولا حتى البكاء. هي لا تستحق أكثر من نظرة باردة، ثم نمضي.

عادت الجدّة إلى الحكي على وقع هدير ماكينة ستوكي.

كانتْ تحكي عن كل شيء بمتعة؛ عن طفولتها، عن المرة الأولى التي حطّتْ فيها الإرساليات السويدية في قريتها في ضواحي أسمرا، عن معلّمها الأشقر الذي لم تفهم كيف صبغ عينيه بالأزرق الفاتح، دون أن يمنعه ذلك من الرؤية، عن التنّورة القصيرة التي وزعها عليهم السويديون، وأخذتْ وقتاً طويلاً قبل أن تطرد خجلها وتعتادها. حكتْ عن ابن معلّمها الذي كان صورة مصغّرة عن والده، وكيف أنها كانت تستغل انشغال المعلّم، لتضع إصبعها في عينيه وتحاول محو الأصباغ، قبل أن تُفاجأ ببكائه المرير غير المفهوم.

كانتْ تحكي عن كل شيء بمتعة، لكنها تتجنّب الحديث عن ابنتها، وكأنها بذلك تتجنّب وجعها. كانت تردّد أن الحكايات المسلّية هي حكايات الآخرين، أمّا ما يخصّنا فيتسربل بالمهابة مهما بدا بسيطاً. كثيراً ما سعت الفتاة لاستنطاق الجدّة حول والديها، لكنها لم تكن تخرج إلا بشذرات متفرقة لا تروي ظمأها؛ عن نضالهما واستشهادهما بشرف على عتبة التحرير، عن أنهما مثل آلاف ذهبوا بملء إرادتهم، ليأتي الوطن. على غير المعتاد، كانت هذه الحكاية هي الوحيدة التي لا تصل لتمامها أبداً. ما إن تبدأها الجدّة مرغمة تحت إلحاح حفيدتها، حتى تُنهيها وهي تشرق بدموعها. لهذا اعتادَت الفتاة مع الوقت ألا تنبش هذا الأمر، وأن تتواطأ مع الجدة في مراكمة الصمت فوقه. فعلتْ هذا حتى وهي تسمع كلاماً مستفزّاً خارج البيت.

هناك من ألمح لتعرّض والدتها لحادث بعيد عن المعارك، وآخر قال إنها ماتتْ معلولة العقل. وذهب مَن خاصَمْنها من رفيقات الدراسة إلى حدّ وصم والدتها في شرفها. في المقابل لم يكن أحد يأتي على ذكر والدها الذي غامت سيرته على هامش الأقاويل التي تحوم حول والدتها.

عادَت الفتاة بتفكيرها إلى دائرة الأرشفة، شعرتْ أنّها بحاجة إلى شيء يحقنها بالإثارة، وإلا ستصبح امتداداً لحياتها الباردة. فكّرتْ في علاقة ذلك بالألوان؛ فالوثائق التي تعمل عليها محاطة باللون البنيّ، وهو لون شاحب لا ملامح له، لون ضائع بين الأصفر والأسود، كاد أن يصعد إلى الشمس قبل أن ينغمس بكليّته في الطين. تمنّتْ لو تعمل على الوثائق الحمراء، فهي ولا شك وثائق لاهبة، تفور بالحياة.

التفتتْ إلى لوحاتها التي تملأ الغرفة، أصابتها الألوان الداكنة بالضيق. كانت المرة الأولى التي تنتبه فيها أنها كانت غارقة في الألوان المعتمة أو تلك الفاترة المحايدة. سلب الرماديّ امتداد السماء ورحابتها، وأخضع الأزرق الداكن هدير البحر لمنطِقه البارد.

صعدتْ إلى رأسها فكرة صاخبة؛ ستعمل ما بوسعها لتنتقل للعمل على الوثائق الحمراء، أو ستترك هذه الوظيفة إلى الأبد. سيكون مريحاً أن تتخلّص منها في البداية قبل أن تتورّط أكثر.

* * *

في اليوم التالي، حضرتْ إلى الدائرة مبكراً.

أرادتْ أن تختلي برئيس القسم قبل قدوم الآخرين، وهو ما كان. من فورها انتقلتْ إلى مكتبه وهي تكتسي غنجاً لا يقاومْ. ارتبك الرجل وهو يسمع طلبها بينما عينه ترمش بسرعة أكبر. أخبرها أن مدير الدائرة وحده من يملك هذا القرار. لكنه في الوقت ذاته لم يشأ أن يظهر أمامها بمظهر العاجز:

«امنحيني بعض الوقت، وسأفكر في طريقة لإقناعه بالأمر، فالعمل على هذا النوع من الوثائق يتطلب دُربة وحسّاً عالياً. وقبل هذا وذاك، اطمئناناً عالياً من قبل المدير».

لم تُرضها إجابة رئيس القسم، فضغطتْ عليه بافتعال إصابتها بخيبة أمل وهي تزمّ شفتيها الورديتين. زاد ارتباكه قبل أن يُبادر:

«حسناً ما رأيك أن أُطلعك بشكل يومي على بعض هذه الوثائق، حتى تتعودّي على طبيعتها، قبل أن أرفع طلبك إلى المدير، لكن ليبقَ هذا الأمر بيننا».

تهلّل وجهها وقد أحسّتْ باقترابها ممّا تريد. شكرَت الرجل بحماس أثار استغرابه، وحفّزه للبدء فوراً في خطّته. دفع إليها بمجموعة من الأوراق أخرجها من درج مكتبه:

«ابدأي بهذه، وأعيديها إليّ قبل انتهاء اليوم، لكن كوني حريصة ألّا يطّلع عليها سواك».

أمسكتْ بالأوراق كمن عثر على كنز. كرّرتْ شكرها، وعادتْ إلى مكتبها على عجل، وشرعتْ في القراءة.

كانتْ إحدى الوثائق تتحدث عن اجتماع عاصف لقيادة التنظيم. خلافات حادة، وشتائم نابية، تبعها انسحاب البعض قبيل الشروع في اتخاذ القرار.

وثيقة أخرى تتحدث عن العملاء الذين تمّ زرعهم في تنظيم منافس. ثالثة شملتْ قائمة بمن يتطلب تصفيتهم من الإرتريين داخل الأراضي السودانية، والأشخاص المخوّلين بذلك.

شعرتْ بالرهبة إزاء ما تقرأ. كان بقية الزملاء قد حضروا، فجاهدتْ كي لا يظهر ارتباكها. لم تكن تعرف إذا كان هذا ما أرادته بالفعل. شعرتْ أنها دخلتْ عالماً شائكاً. لكنّها في الوقت ذاته كانتْ تشعر بشيء من الانتشاء. كان الخوف يمنحها شعوراً لذيذاً بالإثارة.

انتهتْ من قراءة كل الوثائق مع قدوم رئيس القسم وهو يحمل إليها نصيبها من الحزم البنّية، ويستلّ الوثائق الحمراء بخفّة، وفي عينيه نظرة تواطؤ بلهاء.

لاحظتْ أنّ ما اطّلعتْ عليه كان عامراً بالتفاصيل، بالأشخاص، بطباعهم، السيئة قبل الحسنة، رغم اقتصار الإشارة إليهم بالأوصاف. شعرتْ أنّها كانت إزاء نوع من التلصص الشهيّ. إزاء ما يُشبه النوافذ المشرعة على غرف نوم حميمة.

لكنّ انتشاءها كان يرجع بالأساس إلى أمر آخر أدركته لاحقاً؛ فهذا النوع من الوثائق يجعلها تعيش شيئاً يُشبه ما مرّتْ به جدّتها. شيئاً طافحاً بالحياة. سيُصبح لها إذن ما تحكيه حين

تغدو طاعنة في السنّ، ستحيا تجارب قاسية، دون أن تُغادر مكتبها، ستملأ روحها وذاكرتها بما ستنقله لأحفادها. وستجد في هذه الحكايات سندها في الحياة.

عادتْ إلى الوثائق الباردة، دون أن تُغادر تفكيرها الوثائقُ اللاهبة. مرّت على وثيقة تتحدث عن مجنّد يشعر بالغيرة من زميله وعلاقته بفتاة جميلة، فأخذ يرسل لها رسائل حب. كان يمكن لمثل هذه الحكاية أن تستوقفها لولا أنها كانت قد عرفت الطريق إلى وثائق أكثر إثارة. طبعتها على عجل وذهبتْ إلى غيرها.

استمرّتْ في طباعة أوراقها البنيّة، وهي تسترق النظر إلى الشريط الأحمر الذي يُغلّف وثائق رئيس القسم. زاد تعلّقها باللون الأحمر. سيُصبح منذ اللحظة لونها المفضّل، وقد صبغ وجودها بالإثارة. شعرتْ بالغيرة وهي ترى هذا اللون الشهوانيّ في يد مَن لا يستحقه.

الأحمر لون متمنّع، يُصدر منه الصدّ أولاً، لكنّه مثلنا يتمنى ألا نطيعه، أن نتجاوز كل خطوطه وحواجزه، لنصل إلى كُنْه الجمر الحارق، الشهيّ.

وهي ستفعل ذلك حتماً.

الشريط الثاني

(1)

غرقتْ في الإثارة لعدة أيام.

تأتي كل صباح قبل البقية، فتنغمس في قراءة الوثائق الحمراء. كانتْ في كل مرة تُنهي ما لديها في وقت أسرع، فتطلب من رئيس القسم أن يزيد من الحصّة في اليوم التالي، لكنّ قدوم زملائها كان يقطع استرسالها في متعة التلصّص، فتنكفىء على الأوراق حتى يأتي موعد سحبها من قبل رئيسها، وتسليمها وثائقها البنيّة.

في أحد الصباحات جاءتْ باكراً على عادتها الأخيرة، فوجدَت الأوراق في انتظارها، غير أنّها لم تسْتلمها. كانتْ تطمع فيما هو أكبر:

«ما رأيك لو تحدّثنا إلى المدير بخصوص عملي على الوثائق الحمراء؟ أظنّ أن الوقت قد حان».

عرفتْ أن عينيه هي مَن ستجيب أولاً وهي ترمش بسرعة. كان هذا الفعل اللاإرادي يفضح ارتباكه ويعرّيه. حاول رئيس القسم أن يؤجل الأمر، لكنّ إصرارها المتغنج كان أكبر.

غاب رئيس القسم، بينما ظلّتْ تمنّي النفس بمتعة معلنة. بأن تُمارس التلصُّص أمام الملأ، فتكتمل الإثارة.

تأخر رئيس القسم، تأخر كثيراً، فاعتراها القلق. قدِم بقية الزملاء. لاحظوا ولا شكّ ارتباكها. فهي لم تُبارح مكتب رئيسها. كانتْ تقف أمامه منذ اللحظة التي غادر فيها الرئيس لإقناع مدير الدائرة.

عاد رئيس القسم مطأطئ الرأس يتبعه المدير وهو يرمقها بملامح متجهِّمة. ساد صمتٌ في المكان، وأخذَت الأعين تتجه نحوها. كان الأمر مختلفاً هذه المرة؛ فلم تكن العيون تتبع فتنتها، إنما تنهش ارتباكها. أخذتْ تعبث بخاتمها بتوتّر، عادتها حين تنتظر شيئاً بقلق، تأخر حديث المدير، فعادتْ إلى مكتبها، والعبث بخاتمها أصبح أكثر توتراً، حتى نطق الرجل أخيراً، وهو يسكب كلامه كالثلج فوق رأسها:

«لهذه الدائرة قوانين لا يمكن تجاوزها. لا يمكن لكِ الانتقال إلى الوثائق الحمراء إلا حين تصبحين أهلاً لذلك، وهذا أمر لا يُقرره شخص سواي. أتمنى أن تهتمّي بعملك هذا، وألّا تتطلعي إلى غيره، هذا إذا أردتِ أن تستمرّي في هذه الوظيفة التي يتمناها الآلاف غيرك».

غادر المدير بمثل الملامح التي جاء بها.

كانتْ لا تزال تحت الصدمة، تتناهى إليها ضحكات مكتومة من السيدتين، بينما رسم أحد الرجلين ملامح تعاطف كاذبة على

محيّاه، وتظاهر الآخر بالانشغال بأوراقه. التفتتْ ناحية رئيس القسم فأرخى عينيه بخجل.

ظلّتْ وقتاً طويلاً وهي لا تستطيع طباعة حرف واحد من وثائقها البنيّة. كان شعورها مزيجاً من الغضب والصدمة. شعرتْ أنّ كبرياءها انهار في لحظة واحدة، بينما ينشب زملاؤها أظافر الشماتة في عينها.

لاحظ رئيس القسم حالتها، فعرض عليها المغادرة إن أرادتْ. لملمتْ أغراضها وغادرَت المكتب دون أن ترفع عينيها في وجوه زملائها التي أسفرتْ أكثر عن شماتتها. لحق بها رئيسها عند مدخل البناية وهو يحاول تهدئتها:

«أنا آسف لما جرى. صدّقيني لقد فاجأني تصرفه المتهور. لديّ احساس أنّ ما أغضبه هو توسّطي في الأمر. ربما لو تحدثتِ إليه مباشرة لكانت ردة فعله مختلفة. لا يكفّ هذا الرجل عن التصرف بأنانية بشعة».

أومأتْ إليه دون أن تنطقْ وغادرتْ مسرعة.

في داخلها كانتْ تميل إلى ما قاله رئيسها. فغضب المدير كان أقرب إلى الغيرة عليها، منه إلى الحرص على قوانين الدائرة، لكنّ ذلك لا يُغيّر من الأمر شيئاً، فقد جُرحتْ كرامتها، وتبدّد احترامها بين زملائها.

لن تعود إلى هذا المكان القبيح.

كان هذا هو القرار الذي انتهتْ إليه، وهي تستقرّ في المقعد

الخلفي لسيارة الأجرة. حياتها الرتيبة الباردة ستكون أفضل ألف مرة من بعثرة قيمتها أمام مجموعة من الحمقى.

كانتْ قد طلبتْ من السائق أن يوصلها إلى بيتها. طوال الطريق بدتْ شوارع أسمرا كئيبة بشعة، حتى تلك التي تشتهر باحتضان العشّاق والمداراة عليهم، أو تلك الجديدة التي يحبّ الناس نظافتها، أو القديمة التي تتقاسم معهم الذكريات. هي تعرف أنها الشوارع نفسها، لكنها تُحبّها حيناً وتكرهها حيناً، وكأنها ليست سوى مرآة تعكس ما تشعر به، وتُعيد تمثيله أمامها.

أخذ الصداع يحرث رأسها بدأب، ويدها الباردة ترتجف، بينما تمرّ السيارة بشارع الحريّة. لمحتْ عيادة على جانب الطريق فأشارت إلى السائق بالتوقف. دفعَت الأجرة، وترجّلتْ باتجاه العيادة.

لحسن حظّها كانت العيادة شبه خالية فجاء دورها سريعاً.

تمدّدتْ على السرير بينما يقيس الطبيب ضغطها. وضع السمّاعة على صدرها، فبدأتْ دقّات قلبها اللاهثة في التباطؤ. انتهى الطبيب من فحصها، وشرع في كتابة وصفة طبية، وهو يسألها عن حياتها، ووظيفتها، قبل أن ينصحها بضرورة تجنب التوتر، وهو يقدّم لها ماء وقرص دواء.

ظلّت ممدة على السرير رغم شعورها ببعض التحسّن، لم تكن ترغب في المغادرة. شيء ما في المكان غمرها بالارتياح. لعلّه خفوت وجعها، أو هو مجرد الحديث مع شخص من خارج دائرة الأرشفة. لم تهتمّ كثيراً بالسبب. كانتْ تريد المكوث لفترة

أطول وحسب. مضتْ دقائق بدا فيها الطبيب محرَجاً من بقاء مريضته في الغرفة دون مبرر.

قامت أخيراً عن السرير، وجلستْ قبالة الطبيب الذي ظلّ يتابعها دون أن ينطق، لكنّ نظراته كانت تحكي استغرابه. لاحظتْ ذلك، فابتسمتْ بحرج. سألها إن كانتْ تشتكي شيئاً آخر. جالتْ بعينها في المكان، وهي تُفكّر في طريقة لإطالة أمد وجودها لديه. كان يُغريها انشغاله بعمله عنها، لم يتبعها كالآخرين بعيون جائعة، لم يُطر جمالها، أو ينتبه له حتى، وكان هذا وحده مدعاة لغيظ يخالطه الفضول. عادتْ إليه، أرادتْ أن تُبادر هي لمدحه، أن تستدرجه فتفتح بذلك حواراً بعيداً عن مهنته. أمعنَت النظر في ملامحه فانتبهتْ متأخرة إلى دمامته. كان قصير القامة، ووجهه مليء بالبثور، أنفه قصير معقوف، وشعره متآكل يبرز جبهة عريضة، دون أن يُخفي ذلك كله لمعة نباهة تشعّ من عينيه.

احتارتْ كثيراً، فلم تكن تعرف طريقة إطراء خارج حدود الجسد. لم تكن تعتقد أصلاً أن ثمة إعجاب يفوق التعلّق بجمال الملامح.

لوهلة أنقذها خاطر، وهي تنتبه إلى جمال يملكه الطبيب خارج حدود ملامحه، لكن ليس بعيداً عنها، فبادرتْ بما يُشبه الاكتشاف:

«لديكَ صوت جميل.. لا بدّ أنك تخلب عقول الفتيات ببحّته المحببة».

بوغت الطبيب بهذا الإطراء الناعم، وقد صاحبه غنج آسر. لم يدرِ ما يقول. اكتفى بالتحديق في وجه الفتاة وهو يمسح قطرات عرق بدأت تتفصَّد عن جبهته، ويطرقع إصبع السبابة بتوتر واضح.

لم يكن الطبيب غافلاً عن جمال الفتاة، لكنّ قبحه الذي يعرفه تماماً، كان بمثابة جدار صلب طويل يمنعه من الاقتراب من النساء عامة، والجميلات منهن على وجه الخصوص.

حاول أن ينطق، أن يشكر إطراءها على الأقل، لكنّ لسانه لم يُطاوعه. كان كبقية جسده تحت تأثير الصدمة.

بدأ اهتمام الفتاة يخبو تحت صمت الطبيب.

شعرتْ أن محاولتها لبدء حوار طويل قد باءت بالفشل. فكّرتْ في تكرار المحاولة، غير أنها أحجمتْ وهي تلمح رجفة تعبث بيد الطبيب، رغم أنه يحاول إخفاء ذلك بطرقعة السبابة أكثر. همّتْ بالمغادرة، لكنّ الطبيب أمسك يدها بقسوة أوجعتها. حاولَت الإفلات، فتشبث بيدها أكثر. ولم ينطقْ.

حارتْ في تفسير ملامحه، فأمام يده القاسية المتعرّقة، كان وجهه يحمل ملامح الأطفال. بدأتْ ترى في عينيه خليطاً من نظرات رغبة وخوف وتوسّل. أفلتتْ يدها بقوة وغادرتْ مرتبكة، تتقزز ممّا ظلّ في يدها من كفّه المتعرّقة . فقدتْ كل رغبة في البقاء، وقد أصبح الطبيب كالآخرين، متنبهاً لفتنتها، بل ذهب إلى حد الاعتداء عليها. فَقَدَ الموقف إثارته، وقد تشبّعتْ بنظرات الرجل الجائعة.

تركَت الطبيب في حيرته.

كان محبطاً، ولكن سعيداً في الآن نفسه، فهو جرّب إعجاب أنثى، وهو، وهذا هو المهم، اكتشف أنه يملك أخيراً شيئاً جميلاً. إنه صوت ذو بحّة يخلب عقول الفتيات. مسح جبينه بكفّه، دون أن يدري أيهما مسح عن الآخر تعرّقه.

دون أن يعي، أخرج آلة تسجيل من درج مكتبه، وألقمها أحد أشرطته الغنائية الأثيرة التي لا يُعيرها لأحد. ضغط زر التسجيل، وبصوت عالٍ:

«أنتَ.. أنتَ صوتكَ.. صوتكَ جميل.. يسحر الفتيات..»

الشريط الثاني

(2)

سريعاً تجاوزتْ موقفها مع الطبيب، وعادتْ للتفكير في دائرة الأرشفة.

خفّ شعور الحرج وحلّت مكانه رغبة عارمة في الانتصار لنفسها. كانتْ هذه هي المرة الأولى التي تُمنع شيئاً تُريده، وهذا يجرح كبرياءها. فكّرتْ أن مجرد ترك العمل لن يُعيد لها كرامتها المهدرة. كانتْ تبحث في طريقة تردّ اعتبارها، قبل أن تترك الدائرة وموظفيها الأغبياء إلى الأبد.

كان تفكيرها منصبّاً على كيفية الوصول إلى الوثائق الحمراء، لا لتستمتع بنشوة التلصص وحسب، بل لتفرض رغبتها رغماً عن الجميع، وفي هذا متعة أكبر.

كانت الستوكي تهدرُ بين يدي الجدّة، ولا تتوقف إلا حين ينتقل العمل إلى المِغزل العاجيّ. بدأَت الفتاة تراقب جدّتها، وكأنها ترى المشهد لأول مرة؛ حركة اليدين السريعة في اتجاهات متقابلة، وكأن كل عصا تنقض غزل الأخرى، بينما

هما يتكاملان في المضي بالصوف إلى لحظة ذروته. هذه المرة كانتْ تبحث عن الأمر الذي يجعل هذا الفعل المتكرر خالياً من الرتابة؛ الأصابع الرهيفة، اعتادتْ تبادل الحركات الدائرية بتناغم رتيب، دون أن يبعث على الملل. كان ثمة سرّ في فعل الشيء نفسه كل مرة، مع نتيجة مختلفة دائماً.

عاد صوت الستوكي الهادر، ومعه لاحظَت الجدّة استغراق حفيدتها في النظر إليها، فسألتها إن كان صوت الماكينة يزعجها.

«لا. أبداً. تعرفين أني اعتدتُ على صوتها، بل أصبحتُ أحبه».

«إذن هل هو صوت المِغزل العاجيّ؟».

ضحكا سوياً، قبل أن ترتدي الجدة ملامح جادّة. أخبرتها أنّ للمِغزل العاجيّ حديثاً طويلاً مع الصوف يتجاوز الأصابع التي تُمسك بها. قالت إنها لا تُقدم على الإمساك بالمِغزل ما لم تكن راغبة في الاقتراب أكثر من القماش، تلك التفاصيل الدقيقة التي تمنح كل قطعة ألقها الخاص، ما يتطلّب أن تحضر كل الحواس، وترافق حركة المِغزل الرشيقة.

لم يكن الأمر إذن عشوائياً كما يبدو. هو المنطق ذاته الذي تُخلق به الحكايات، هكذا فكّرَت الفتاة، تستحضر الجدّة حواسّها كلها مع كل حدث، تُصغي باهتمام، وتحكي بمحبة، فتلتقط جديداً في كل مرة. هكذا لا تزورها الرتابة أبداً، لكن لا يزال خيط مفقود:

«ماذا كنتِ ستفعلين لو فاتكِ حدث ما، كيف كنتِ ستعوّضين الحكي عنه؟».

صمتَت الجدّة قليلاً، قبل أن تُجيب بابتسامة واثقة:

«كنتُ سأصنع حكايتي الخاصة عنه».

بدا أن ذلك هو كل ما أرادته. فقد وضعتها الجدّة على الطريق الصحيح تماماً.

لن تترك الوظيفة، ولن تتسوّل العمل على الوثائق الحمراء، بل ستنشغل بوثائقها البنيّة، لكن بعد أن تحوّلها إلى وثائق حمراء. ستحذو حذو جدّتها، فتختلق كلّ ما يفوتها، وتحقن الوثائق البنية بخيالها، فتصنع حكايتها الخاصة.

استولتْ هذه الفكرة على كيانها فحرمتها النوم. لكنّها كانتْ في غاية الانتشاء، وقد اهتدتْ إلى طريقة تملأ حياتها بالإثارة، وقبل هذا، تنتقم بها من دائرة الأرشفة بأسرها.

* * *

صباحاً، خرجتْ من بيتها متأنقة.

غسلتها الفكرة الجديدة من كآبة اليوم السابق، فاستعادتْ ألقها.

على مدخل الدائرة تفاجأتْ بالطبيب في انتظارها. استغربتْ وجوده، لكنها تذكّرتْ أنها أخبرته عن مكان عملها حين كان يفحصها. تظاهرتْ بعدم رؤيته، لكنه اعترض طريقها.

«قدمتُ للاعتذار منكِ. تصرّفي لم يكن لائقاً بفتاة مهذّبة مثلك. أرجوك سامحيني».

انتبهتْ للمرة الأولى أنه ألثغ في السين بحيث يقلبها ثاء بليدة. رسمتْ على وجهها ابتسامة مصطنعة وهي تومىء برأسها موافقة. حاولَت المرور، لكنه عاد لاعتراض طريقها. شعرتْ بالخوف وهي تسترجع موقفه معها في العيادة.

«أعرف أن خطئي كبير، لكنّي لن أغادر ما لم تسامحيني».

مدّ يده ليصافحها، فعاد إليها الشعور بالتقزّز من ملمس كفّه المتعرّقة. أجابته وهي تتجاهل يده الممدودة:

«سامحتك».

قالتها بكل صبر الأرض. لم تكن تنظر إليه حتى. كانتْ تتحرّق لبدء يومها الجديد، ولم يكن لديها وقت تُضيّعه مع هذا المسكين.

«لن أتأكد أنك فعلتِ ما لم تقبلي دعوتي للخروج سوياً بعد انتهاء عملك».

لا تعرف لماذا يحشو كل جُمله بحرف السين، هذا الحرف الذي بدأتْ تكرهه لفرط ما يقوم بتشويهه. ومع هذا وافقتْ على الفور. كانتْ تريد التخلص منه وحسب. مال جانباً والابتسامة تعلو محياه، فانطلقتْ دون أن تلتفت إليه.

دخلَت المكتب بمشية متكسّرة، فاستقبلتها نظرات زملائها.

اعتلَت الدهشة وجهَي السيدتين، فيما قام رئيسها من مكتبه وهو يحمل نصيبها من الوثائق البنيّة:

«حمداً لله على سلامتك.. كنتُ قلقاً عليكِ، لكن يبدو أنك تجاوزتِ ما حدث سريعاً».

شكرته بودّ حرصتْ أن يكون مبالغاً فيه، فتهلّلتْ ملامحه. مال عليها هامساً، وقد عادتْ إليه نظرات عينيه النهمة وهي ترمش أكثر:

«لا يزال بإمكانك الاطّلاع على الوثائق الحمراء متى أردتِ».

كادتْ تُخبره بعدم حاجتها إلى ذلك، لكنها تراجعتْ. أرادتْ أن يبدو كل شيء طبيعياً. ثم إنها تعرفُ أنها لا تزال بحاجة إليه، فكل ما تقوم بطباعته، يمرّ به ليعتمده.

شرعتْ في قراءة أوراقها الباردة، لكن هذه المرة بمشاعر مختلفة؛ فقد كانتْ تبحث بينها عن قصة تصلح لما عزمتْ عليه.

لمعتْ عيناها وهي تُمسك بإحدى الأوراق. وضعَت القلم في فمها وأخذتْ تلوكه، كانت هذه هي طريقتها حين تستحوذ عليها فكرة ما. شعرتْ أنها وجدتْ غايتها، لكنها لم تعرف من أين تبدأ. رسمتْ سيناريوهات كثيرة، قرأتْ بدايات الوثيقة بتركيز، ثم انتقلتْ إلى آخرها. حاولتْ تذكُّر ما كانتْ تفعله الجدّة، انسياب حديثها، تدفق أفكارها، انتقالها من نقطة إلى أخرى دون عناء. حاولت الإصغاء باهتمام حتى تحكي بمحبة، غير أنّ كلّ ذلك بدا عبثياً. أحسّتْ بأن كلّ محاولاتها دون

المستوى الذي تريد. تمنّتْ لو كانتْ تملك نصف موهبة جدّتها في الحكي؛ لكانتْ أبحرتْ الآن في حكاية مثيرة.

تعاظمتْ حيرتها، قبل أن تخطر لها فكرة مختلفة، رأتْ فيها مخرجاً مناسباً.

نحَّت الورقة جانباً، وشرعتْ في طباعة بقية الأوراق كما هي، وهي تُجاهد كي تحتفظ بحماسها دون أن تُفسده الرتابة.

في نهاية اليوم قالتْ لرئيسها إنها ستُكمل في الغد ما تبقى من أوراقها، وغادرَت المكتب.

كان الطبيب في انتظارها على مدخل الدائرة.

أخبرها أنه قدِم قبل ساعة كي لا يفوته موعدها. بالكاد تذكرتْ أنها وعدته بالخروج في نهاية اليوم. حاولَت الاعتذار لكنه بدا مصرّاً.

مضتْ معه على مضض. عرض عليها تناول الغداء، لكنها فضّلتْ أن يسيرا إلى أقرب مقهى. طوال الطريق من مبنى الدائرة إلى بداية شارع الحرية، كان يُكرّر اعتذاره، ويُمطرها بلثغته القبيحة. وكانتْ في المقابل تُومىء برأسها دون أن تمنحه اهتماماً أكبر. كان ذهنها مشغولاً بقصتها، بالإثارة التي تنتظرها. عبرا منطقة السوق الكبير، مروراً ببعض الشوارع الخلفية الضيقة المرصوفة بالحجارة، حتى خرجا إلى الشارع الكبير من زاوية شركة الاتصالات، واستقرّا في مقهى بار رويال.

جلس قبالتها دون أن يتوقف عن الكلام. كان يحكي بفرح

طفوليّ، وهي تلتفتُ له حيناً، وتُسهم في البعيد معظم الوقت. ولم يكن يهتمّ لانشغالها عنه. كان مكتفياً بوجودها إلى جانبه.

حكى لها عن طفولته البائسة، عن دراسته للطب تحت ضغط والديه، عن انغماسه في مهنته وانعزاله عن الناس. تحدّث كثيراً عن الفتاة التي أحبّها في الجامعة، قبل أن تصدّه بغرور جعله يكره عالم النساء. كان كمن يبسط أمامها تأريخ خيباته، وصحائف هزائمه، ليبرر ما بدر منه في العيادة. ولم يُغيّر ذلك من إعراضها عنه.

منحته أخيراً ابتسامة فقيرة، أغنتْ روحه فاندفع في الحكي أكثر، وهو يلتقط منديلاً يجفّف به عرق كفّه وجبهته:

«في الحقيقة لم تكن تلك هي الفتاة الوحيدة التي أحببتها، فقد أحببتُ كل جميلة مرّتْ أمامي. ألا يقال إن الحطب الجافّ أسرع اشتعالاً! كنتُ جافّاً بما يكفي، فقد أحببتُ جارة، وقريبة. أحببتُ مصففة شعر ونادلة مقهى، وبالطبع كل ممرضة عملتْ معي. لم يكن الحبّ يستغرق منّي زمناً، كان مبتدأ شعوري، وفاتحة إحساسي. لكنه مع الوقت أصبح سريع التلاشي، وهذا حمى روحي من التبعثر بين غادية ورائحة.

ربما لن تُصدّقي أنني أحببتُ فتاة ثم كرهتها فقط في المسافة بين بيتي وكلية الطب. فقد ركبتْ في الحافلة إلى جانبي فتاة مغتسلة بعطور الأرض. حضورها قريب كنباتات المنازل الدافئة. لم تتحدث، ولم أكن في حاجة إلى ذلك. كنتُ أخوض معها حواراً صامتاً وممتداً بحجم اتساع عينيها.

لمحتْ في يدي ديوان شعر غزليّ، ولمحتُ اهتمامها به، فأبرزتُ العنوان أكثر: «في غيابة الحُبّ»، ومعه كانت كل حواسي تتنظر إشارتها التي جاءتْ أخيراً، فزغردَت الدنيا من حولي:

«هل تسمح لي بقراءة هذا الكتاب حتى أصل إلى وجهتي؟».

كنتُ على وشك التخلّي لها عن الديوان الذي لم أقرأه بعد، لكنّها لم تنتظر جوابي، وكأنها تعرفه، تحفظه حتى، فانتقلتْ خطوة إلى الأمام:

«لكن بشرط.. لا أرغب بفتح حديث معك».

خاب رجائي وهي تُصدّر الصدّ، ولمّا أنطق بعد.

انهمكتْ في قراءة الديوان الذي كان لي، فأصبح لها. تركتني إلى جوارها أتابع تأثرها بعذوبة الكلمات وموسيقاها الآسرة. بالأحرى، كانت تقرأ الشعر، وكنتُ من يصطلي به. كنتُ أهبط تدريجياً في «غيابة الجبّ»، حتى بلغتُ محطّتي، وكانتْ لا تزال في انهماكها. ترجّلتُ ولم تلحظ غيابي. غادرَت الحافلة، ومعها الفتاة المغتسلة بعطور الأرض، القريبة كنباتات المنازل الدافئة، مضافاً إليها ديوان شعر غزليّ لم أكن قد قرأته، ولن يتاح لي ذلك أبداً».

استغرقَت الفتاة في الضحك، دون أن يُضايق ذلك الطبيب. على العكس، حفّزه مزاجها الرائق على المضيّ قدماً، وهو يلتقط منديلاً آخر.

تلعثم قليلاً قبل أن ينطق بكلمات بدتْ ثقيلة عليه؛ أخبرها أنه أصبح يُحبّ صوته، بعد ملاحظتها الأخيرة، رغم أنه يكره لثغته الواضحة، وأنه صار ينشغل بتسجيل صوته ليستمع له قبل أن ينام. ملأ شريطاً كاملاً بالحديث عنها، وعن زيارتها لعيادته. عن حياته التي مضتْ، وتلك التي ينتظر خوضها. أخبرها أنّه في الحقيقة ظلّ ينتظرها عند مدخل الدائرة منذ الصباح، حين وعدته بهذا اللقاء. صمت قليلاً وكأنه يستعدّ مجدداً لطرح أمر هامّ؛ سألها إن كان يستطيع لقاءها مجدداً.

سكنَ ينتظر ردّها، لكنها كانت قد عاودَت الشرود قبل أن تنتبه متأخراً إلى انتهاء حديثه.

«ما رأيك لو ترافقني في مشوار؟».

تجاوز سؤالها المباغت سريعاً، تجاوز حتى تجاهلها لسؤاله، ووافق على الفور دون أن يسأل عن الوجهة. وقبل أن ينهض من مكانه كان قد تناول المنديل الأخير على الطاولة، وجفّف كفيه وجبهته.

كان قد خطر لها أن وجوده إلى جوارها قد يقيها أي مفاجآت، خاصة وهي تجهل ما هي مقبلة عليه.

استقلّا سيارة أجرة وقصدا شارع أفْعَبتْ. على يمينهما كانت تتناثر المناطق المتعبة؛ قزا برهانو، وحدّش عدي، وأبا شاول. بينما في الجهة المقابلة كانت الصورة مغايرة تماماً حيث السوق ثم جامع الخلفاء الراشدين، وكنيسة اندا ماريام التي

ينتهي طريقها بشارع كمشتاتو. كان أفْعَبتْ بمثابة حاجز بين عالمين متناقضين، يمنع انصهار أحدهما في الآخر.

ركزتْ انتباهها في المنطقة الراقية من الشارع. سألت السائق إن كان قد سمع عن قائد عسكريّ مشهور خصّصت له الدولة سكناً جيداً في هذه المنطقة، لكنه أجاب بالنفي. أخذت تسأل السكّان والعابرين دون جدوى. اقترح عليها الطبيب أن تبحث في الجهة المقابلة، لكنها تجاهلَت اقتراحه، فلا يمكن لهذا القائد أن يسكن في الشطر الفقير من أفْعَبتْ. كرّرت محاولتها ولم تصل إلى نتيجة مختلفة، فطلبتْ من السائق كمحاولة أخيرة أن يعبر أولاً باتجاه أبا شاول.

سألتْ أول عابر، فأشار إلى بيتٍ بباب خشبي أخضر في آخر الشارع، دون أن يكون متأكداً تماماً أنه ما تبحث عنه. توقف السائق أمام عدد من البيوت المتهالكة يسند بعضها بعضاً. ترجّلتْ نحو الباب الأخضر، وتبعها الطبيب. وجدَت الباب نصف مفتوح، طرقتْ بلطف فلم يُجبْها أحد. كرّرَت المحاولة دون جدوى. التفتتْ نحو الطبيب وكأنها تسأله عن العمل، فلم تخرج بغير ابتسامة ساذجة. دفعَت الباب بعد تردُّد ودخلتْ بخطوات مرتبكة.

وجدتْ ممراً ضيقاً ينتهي بغرفتين حجريتين متقابلتين دون أبواب. فكّرتْ في التراجع وقد زاد ارتباكها، لكنّ صوتاً بداخلها كان يدفعها دفعاً. تقدمتْ ببطء، والطبيب خلفها لا يمنعها ولا يشدُّ من أزرها. توقفتْ تماماً أمام الغرفتين لا تعرف إلى أيهما

تتجه، قبل أن تفاجأ بامرأة تخرج من إحداهما. في منتصف المسافة بين الغرفتين وقفت المرأتان للحظات تحدّقان إحداهما في الأخرى، قبل أن تُبادر الفتاة تحت ضغط الحرج بالاعتذار عن الدخول دون استئذان، وسألتْ عن الرجل الذي تبحث عنه.

كانت المرأة لا تزال تتفحّص وجه الفتاة دون أن تتفوه بكلمة. رمقَت الطبيب بنظرة عابرة ثم أشارتْ إلى الغرفة المقابلة، وعادتْ سريعاً إلى غرفتها. تقدمَت الفتاة فاصطدمتْ بروائح كريهة تنبعثُ من الغرفة المعتمة. وضعتْ منديلاً على أنفها ودخلتْ يتبعها الطبيب.

وجدا رجلاً نحيلاً رثّ الثياب، مربوطاً بحبال غليظة إلى سرير خشبية، وأمامه طبق لم يُمسّ. صدمها المنظر فتسمّرتْ في مكانها، بينما تقدّم الطبيب لأول مرة، وبدأ في معاينة الرجل. كانت عيناه زائغتين، وعلى جسده آثار حروق قديمة، حاول الطبيب الحديث إليه غير أنه كان يهذي بكلمات غير مفهومة، ولا يكاد يلتفتُ إلى محدّثه.

خرجا من الغرفة والطبيب يُخبرها أن الرجل مصاب بالعمى، وحالته العقلية متردية. عادا إلى المرأة، غير أنها رفضَت الإجابة عن أسئلة الفتاة، قبل أن تقوم بطردهما بطريقة عصبية.

في طريق العودة، لم تكن الفتاة متأكدة تماماً إذا كانت قد امتلكتْ شيئاً ذا قيمة. صحيح أنها تعرف الآن مصير الرجل،

لكنها لا تعرف تفاصيل المسافة التي قطعها بين حاله كقائد عسكريّ، والحال التي آل إليها.

التفتتْ إلى الطبيب الذي كان يجلس إلى جوارها في المقعد الخلفي لسيارة الأجرة. استغربتْ أن كل ما مرّا به لم يُثر فضوله ليسألها عمّا يجري. انتقل الفضول إليها، فسألته. أخبرها أنه وبقدر اهتمامها بمعرفة ما حدث للرجل، يهتمّ بالبقاء بقربها، وما عدا ذلك تفاصيل لا تعنيه.

فاجأها الإطراء، فاجأها أكثر انطلاق لسان الطبيب بكلمات تُعجبها. شعرتْ أن قرار اصطحابه معها لم يكن خاطئاً. شجّعها ذلك على التمادي قليلاً:

«بالمناسبة، أنا أيضاً أتعلّق بالناس سريعاً، لكن ليس للدرجة التي بلغتَها».

ابتسم الطبيب بحبور، بدتْ تلك إشارة بالغة الوضوح. وقبل أن ينطق توقفتْ سيارة الأجرة أمام منزلها، خطر له أن يمدّ يده لمصافحتها غير أنه عدل في آخر لحظة، واكتفى بسؤالها إن كان يستطيع لقاءها في الغد. أجابته بغنج، قبل أن تختفي وراء الباب:

«هذا يعتمد على ما ستقوم بتسجيله الليلة».

الشريط الثالث

(1)

لم تكن واثقة من اكتمال الحكاية التي توصلتْ إليها.

لكنّها مع ذلك كانتْ تشعر بالإثارة، فها هي تصنع حكايتها الخاصة. ها هي تبثّ الروح في وثائقها البُنيّة. تعاظَم غرورها ففكّرتْ أنّ هذا ليس كافياً؛ مع الوقت ستجعل وثائقها أكثر إثارة من تلك التي مُنِعت عنها.

تركَت الجدة ماكينتها جانباً، وعرضتْ على الفتاة أن تُسرّح شعرها مقونان. أخبرتها أن هذه الطريقة التي ينعقد فيها الشعر على شكل جدائل متموّجة من منبته إلى منتهاه تُظهر جمال الوجه أكثر، وأن الفتيات الواثقات من بهاء ملامحهن هنّ من يخترْنَ هذا الشكل.

«المقونان يا ابنتي قرين الوجوه السعيدة. هذه الجدائل المعقودة تشي بالفرح أكثر من الابتسامة الواسعة. لا يتسرّب الحزن إلى وجوه المقونان».

اقتنعَت الفتاة بما سمعتْ فجلستْ وادعة على الأرض عند

أقدام جدّتها التي أخذتْ في تقسيم الشعر إلى ثلاث مجموعات وبدأتْ في فتل كل مجموعة على حدة بخفّة مُلفِتة. كان غريباً أنّ الجدّة تستعين بمِغزلها العاجيّ أيضاً في شقّ وتفريق الجدائل عن بعضها.

عرضَت الجدّة أن تُمضي الوقت بسرد بعض الحكايات، غير أن الفتاة عرضتْ أن تحكي هي، أن تُجرّب حياتها الجديدة، وتختبر ما أنجزته.

وافقَت الجدّة بحبور، فبدأَت الفتاة في سرد الحكاية، بينما الجدائل تتشكّل في رأسها واحدة تلو الأخرى:

«أثناء إحدى المعارك الطاحنة في منطقة نقفة التي تخندقتْ فيها المقاومة لأعوام طويلة، كثّف طيران العدو من ضرباته على المنطقة الشمالية بغية فتح ثغرة تنفذ منها قواته البرية لكسر تخندق قواتنا. كانت التعليمات الأساسية من القيادة العليا إلى قيادات المناطق بضرورة البقاء في أماكنهم، لحين تقدّم قوات العدو لمباغتتها وتطويق عناصرها.

فكّر قائد المنطقة الشرقية أنّ استمرار وتيرة القصف الجوي على الشمال ستفتح ثغرة كبيرة ولا شكّ أمام قوات العدو وستقضي على الجنود هناك. خاطب القيادة العليا طالباً أن ينتقل وجنوده لإمداد الشمال، خاصة أن جبهته هادئة تماماً. قوبل طلبه بالرفض، وتمّ التشديد على بقائه في منطقته.

لم يقتنع كثيراً بقرار رؤسائه. فهو يعتقد أنه أكثر منهم خبرة

وحنكة عسكرية، وأنه أحقّ منهم بترؤس القيادة العليا، وليس المنطقة الشرقية وحسب. جمع معاونيه، وأخبرهم بقراره إمداد الشمال بالجنود. حاولوا مناقشته، لكنه زجرهم بصلف، فانصاعوا مرغمين.

أرسل نصف جنوده مع عتادهم إلى الشمال رغم تحذيرات القيادة العليا. ولم يمضِ وقت حتى فوجئ بهجوم بريّ مباغت من جبهته. تنبه متأخراً للخديعة التي استدرجه العدو لها. سقط الكثير من جنوده قتلى، وأصابته شظية في كتفه، ولولا استبسال من تبقى من جنوده في المعركة، لمُني الجيش بأكمله بخسارة كبيرة، ولتمكن العدو من تطويق بقية الجبهات من الخلف.

بعد انتهاء المعركة كان الجنود حانقين على قائدهم، وقد رمى بهم في الجحيم بقراراته الطائشة. وتحت تأثير الاستياء الكبير بين قواته، قرّرت القيادة معاقبته، وإعفاءه من منصبه. لكنّها واعترافاً بتأريخه العسكري الكبير، صرفتْ له راتباً تقاعدياً، وخصّصتْ له سكناً جيداً في الجزء الراقي من شارع أفْعَبتْ».

توقفَت الفتاة قليلاً وكأنها تضع فاصلاً بين ما قرأته في الوثيقة البنيّة، وبين ما ستضيفه على ضوء ما رأته برفقة الطبيب في الجزء الفقير من أفْعَبتْ.

كانت الجدّة قد انتهتْ من فتل جانب من شعر الفتاة، وقبل أن تنتقل إلى الجانب الآخر شرعَت الفتاة في إكمال حكايتها، وما إن انتهتْ حتى صمتتْ ترقُب ردة فعل الجدّة.

انتبهتْ متأخراً أنه سيبدو غريباً إلمامها المفاجئ بكل هذه التفاصيل العسكرية. ودعت اللّه ألا تنتبه الجدّة لذلك.

كانتْ ابتسامة غريبة قد ارتسمتْ على محيّا الجدّة وهي تنظر إلى الأعلى وتحرّك فكّها وكأنها تمضغ ما استمعتْ له قبل أن يأتي جوابها:

«حكاية جميلة ومثيرة.. لكن ما رأيكِ لو أدخلنا على جزئها الأول بعض التعديل، فربما تُصبح أكثر إثارة؟».

شعرَت الفتاة ببعض الخيبة، لكنّ ذلك لم يمنعها من الموافقة على اقتراح الجدّة، التي راحتْ تسرد الحكاية بطريقتها.

«أثناء إحدى المعارك الطاحنة في منطقة نقفة التي تخندقتْ فيها المقاومة لأعوام طويلة، كثّف طيران العدو من ضرباته على المنطقة الشمالية بغية فتح ثغرة تنفذ منها قواته البرية لكسر تخندق قواتنا. كانت التعليمات الأساسية من القيادة العليا إلى قيادات المناطق بضرورة البقاء في أماكنهم، لحين تقدّم قوات العدو لمباغتتها وتطويق عناصرها.

زادتْ شراسة الضربات الجوية، فبدأ قائد المنطقة الشمالية في طلب الإمداد، خاصة أنه رصد تقدم قوات برية باتجاهه. وتحت وقع تكرار طلبه، أمرَت القيادة العليا قائد المنطقة الشرقية بإرسال نصف جنوده مع عتادهم لإسناد رفاقهم في الشمال.

تلقّى قائد المنطقة الشرقية التعليمات بكثير من التشكك. كان حدسه يقول إن ثمة خدعة في الأمر. حاول مناقشة الخطة مع رؤسائه، لكنّ توجيهاً صارماً أمره بتنفيذ القرار دون تلكؤ.

جمع معاونيه وعرض عليهم قرار القيادة العليا. أخبرهم أنه يشكّ أن العدو إنما يستدرج قواتهم إلى الشمال حتى يتسنى له الهجوم من جهة أخرى. قوبلتْ فكرته ببعض الفتور من قبل معاونيه الذين نصحوه بالانصياع لقرار القيادة العليا، فهي من ستتحمل في النهاية تبعات ما سيجري.

زاد الضغط على القائد وقد شعر أنه وحده من يملك فكرة مختلفة. أوشك على تنفيذ ما أُمر به، لكنّ هاجسه أخذ في الازدياد. كان يُفكّر أنه المسؤول الأول عن أرواح جنوده، وأنه أكثر دراية بظروف القتال في منطقته من رؤسائه القابعين في الصفوف الخلفية. خطر له أنه لا يصلح ليكون قائداً ما لم يكن وفيّاً لما يؤمن به، حتى لو جاء ذلك على حساب منصبه. اهتدى أخيراً إلى فكرة عَزَمَ على تنفيذها مهما كانت العواقب.

طلب من معاونيه إرسال مجموعة صغيرة من الجنود في وضح النهار إلى منطقة الشمال، وأمرهم بأن يسيروا بشكل مكشوف أمام طيران العدو، لكن بشكل فرديّ ومتباعد. على أن يخطروه بكل ما يحدث لهم أولاً بأول. كانتْ هذه الفكرة في نظره كفيلة بتأكيد أو نفي هواجسه.

أرسل مجموعة قوامها خمسون جندياً. لاحظ أنّها وصلت إلى الشمال دون أن تعترض طريقها الضربات الجوية. أرسل مجموعة أخرى كانتْ هذه المرة مئة جنديّ، فلم تُصب بمكروه. أيقن أن الخديعة متحققة، فقرّر عدم إرسال المزيد رغم النداءات المتكررة من القيادة العليا.

مع الغروب شنّتْ قوات العدو البرية هجوماً كبيراً على المنطقة الشرقية كانتْ لها قواته بالمرصاد. دارتْ معارك طاحنة تكبّد فيه العدو خسائر كبيرة بعد أن فاجأتهم قوات المنطقة الشرقية بالخروج من الخنادق، لتطوّق أعداداً كبيرة منهم وتوقع فيهم قتلاً وأسراً. انسحب ما تبقى من جنود العدو يجرّون خيبة الهزيمة.

ذاع صيت قائد المنطقة الشرقية بين الجنود كعسكريّ محنّك، واعترف له معانوه بالفضل في الحفاظ على أرواح الجنود وتحقيق النصر على العدو.

أحسّت القيادة بصواب قرار قائد المنطقة الشرقية، لكنّها لم تغفر له امتناعه عن تطبيق أوامرها. بمجرد انتهاء المعارك قرّرتْ إعفاءه من منصبه مع تكريمه واحتفاظه برتبته العسكرية».

«ها.. ما رأيك في هذا التعديل؟».

استخدمَت الجدّة نفس اللغة العسكرية التي بدأتها حفيدتها، ما جعل الفتاة ترتبك أكثر، وقد شعرتْ أنّ جدّتها تلفت انتباهها بلطف. ومع هذا فقد بدتْ لغة الجدّة أكثر إقناعاً، وهي التي قضت جلّ عمرها في الثورة، بينما كانت الدهشة حاضرة من القدرة على صوغ الحكاية بشكل أكثر إثارة، والإحاطة بوجوهها المختلفة. كانتْ تتعامل مع الحكايات بمثل قدرتها العالية على فتل الضفائر وعقدها على هيئة جدائل طويلة متشابكة. كان الحكي عند الجدّة مقونان بديعاً يشي بالفرح أكثر من أي ابتسامة واسعة.

أدركَت الفتاة أنه لا يزال أمامها الكثير لتتعلّمه قبل أن تصل إلى مستوى جدّتها في الحكي، ومع هذا فها هي أولى وثائقها البنيّة أصبحتْ تُضاهي تلك التي حرمها المدير من العمل عليها. ها هي أولى خطوات الانتصار للنفس تتمّ بكل نجاح.

«جاء دوري الآن».

شرعَت الجدّة في حكاية جديدة، وكأنها لا تريد تفويت وردها اليومي المقدّس.

أخبرتها أن صديقة لها كانتْ تصلها رسائل دائمة تُخبرها أنّها أجمل فتيات الكتيبة، دون أن تعرف مُرسِلها. تجد الرسائل بين أغراضها تارة، وتأتيها بالبريد تارة أخرى، بينما تتطوّع إحدى الفتيات بإخبارها أن عابراً طلب منها إيصال هذه الرسالة دون أن يكشف عن هويته. ولم تكن الرسائل تزيد عن سطر واحد: أنت أجمل فتاة رأتها عيني في هذا المكان الموحش!

أثار الأمر استغرابها في البداية، قبل أن يتحوّل إلى فضول مُلحّ لمعرفة العاشق المستتر. باءتْ كل المحاولات بالفشل، فبقدر حرصه على إيصال رسائله، كان يسعى لعدم افتضاح أمره.

حين يئستْ من العثور عليه، اكتفتْ بالانتظار، وهي تُمنّي نفسها بعاشق من طينة مختلفة. تخيلته أحد القادة الذين لا يسمح لهم موقعهم بالاعتراف بهذا الحبّ الجارف لمجندة تعمل تحت إمرته. بدأتْ في لعبة التخمين؛ قد يكون ذلك القائد الوسيم الذي تتمناه كل فتيات الكتيبة، صحيح أنه لم يُعِرْها قط اهتمامه،

لكن من يدري، فربما كانتْ هذه طريقته في التعبير عن عواطفه. أو يكون ذلك الضابط الذي رأته لمرة وحيدة قبل أن يختفي تماماً. ربما لا يزال يُفكّر فيها كما تفعل أحياناً. أو هو شخص ثالث لم تنتبه لإعجابه، بينما يتقلّب صامتاً في شوقه.

طال انتظارها، حتى انقطعَت الرسائل، ومضتْ أعوام طويلة.

الآن، وبعد كل هذا العمر تشعر بيقين بالغ أنها باتتْ تعرف ذلك العاشق. يا الله، كيف لم تُدرك ذلك في حينه؟ كيف لم تنتبه لعينه المرتبكة، ليده المرتعشة، لكلماته المتعلثمة؟ كيف لم يوصلها قلبها المتلهف إلى وجهتها؟ كيف خانها إحساسها وهي بهذا القرب منه؟

لم يكن أحد القادة، لم يكن حتى ضابطاً. كان مجرد جنديّ مثلها. جنديّ صامت لا يُثير انتباه أحد، ليس وسيماً، كان عاديّاً، وموغلاً في عاديَّته. حتى إنها استعانتْ به في البحث عن مُرسِل الرسائل، وهي على يقين أنه لن يُفشي السرّ، ودون حتى أن تشعر أمام اعتياديته بالحرج.

ذلك الشاب المنطوي، قضى في معركة هامشية، معركة تُشبهه. لم يحزن عليه أحد، ولم يذكره، أو يتذكره أحد بعد ذلك. لكنها الوحيدة مَن تفعل الآن، تتذكره وتُفكّر فيه، كما فعل إزاءها طوال حياته.

الآن، تتذكر أيضاً كيف أن الرجل الذي تزوجته لاحقاً، ادعى أنه هو مَن كان يراسلها، كانت تعرف أنه يلعب دوراً لا

يصلح له، ومع هذا فقد أعجبها هذا الادِّعاء، كانت تريد الاقتراب من تلك الحالة الحالمة ولو على سبيل الادعاء.

صمتَت الجدّة قليلاً. لم تعُد إلى هدير الستوكي، أفلتَت المِغزل العاجيّ من يدها. فرغتْ من حكاية صديقتها، دون أن تغادرها أجواءها. مثلها كانت الفتاة، لكن من زاوية أخرى.

فطوال حديث الجدّة والفتاة تشعر أنها سمعتْ هذه الحكاية من قبل، تعثّرتْ بها في مكان ما. تذكّرتْ أخيراً. ساعدها الصمت الذي ساد المكان عقب انتهاء الحكاية في تذكر التفاصيل الكاملة، مع كثير من الاختلاف.

حكاية الجدّة تُشبه كثيراً إحدى الوثائق التي عملتْ عليها، إحدى الوثائق البنيّة على وجه التحديد. قرأتْ هذا الكلام، دون أن تُمهلها حالتها النفسية حينها في الانهماك فيه جيداً.

لكن لماذا هذا القدر من الاختلاف الذي يحيط بالحكايتين؟ حارَت الفتاة كثيراً. هل حكت الجدّة الحكاية كما عرفتها، أم حقنتها بخيالها الذي لا ينضب؟ هل هي مجرد شاهد على الحكاية، أم هي حكايتها نفسها؟ تعاظم الفضول داخلها. لم تكن تعرف كيف تُخبر جدّتها عن القصة التي قرأت عنها دون أن تقول لها شيئاً عن الوثائق التي تعمل عليها، حتى اهتدتْ أخيراً إلى طريقة بدتْ مقنعة:

«ما رأيكِ لو حاولتُ بدوري التعديل على حكايتك؟»

رحّبَت الجدة بسعادة بالغة، فأخذَت الفتاة تحكي ما سبق وقرأته في وثائقها البنية:

«لم يكن الشابّ الخجول عاشقاً بقدر ما كانت الغيرة تأكل قلبه من صديقه الذي ينال كلّ ما يطمح إليه. حين عرف أنه يُحبّ مجنّدة جميلة، أراد أن يصرف انتباهها عنه بكل ما يستطيع، فلم يجد غير تلك الوسيلة الناجعة. كان يكتب لها عن جمالها الفاتن، ويجهد في التخفّي. تفنّن في طرق إيصال الرسائل إليها حتى استنفد وسائله فكاد ينكشف أمره. أخيراً جاءه العون من حيث لا يدري، وأصبح يضع الرسائل لها دون الحاجة إلى الهرب بعيداً. فقد عرضتْ عليه أن يعاونها في البحث عن عاشقها المفترض، مستغلّة إحساسها بانعزاله عن بقية الجنود، واستبعاد أن يشي بها. وافق على الفور. كان يتسلّى بلوعتها التي لا تجد غضاضة في البوح بها أمامه. بينما يتلذّذ في الجانب الآخر بسماع شكوى صديقه من انصراف الفتاة عنه، لشاب لا تعرفه، لكنها على استعداد لقضاء العمر كله في انتظار قدومه».

بان التأثر أكثر على محيّا الجدّة، وهي تحاول إخفاءه. بدا الأمر أكثر من مجرد حكاية لصديقة ما، لكنها رغم ذلك أبدتْ سعادة كبيرة بقدرة حفيدتها على اختراع حكاية مختلفة. سعادة الجدّة بالحكاية الوهمية خفّفتْ من إحساس الفتاة بالذنب لحجم الألم الذي غرسته في جدّتها، دون أن يكون لها خيار آخر.

حين استلقَت الفتاة على سريرها، استعادتْ وثيقتها البنية التي استحالتْ بمساعدة الجدّة وثيقة حمراء، فشعرتْ بانتشاء بالغ. تمنّتْ أن يأتي الصباح سريعاً، دون أن تتبخر كلمة واحدة

من حكايتها المكتملة المثيرة. كانت اللوحات تملأ الغرفة إلى جوارها، وقد انطبعتْ بالبهجة أيضاً، وغادرها السكون، لبعض الوقت.

ما أجمل النوم على حكاية ممتعة، حكاية تخصّنا، معجونة بإحساس وخيال جديدين.

كان هذا آخر ما طرأ على ذهنها وهي تغرق في نوم لذيذ.

الشريط الثالث

(2)

دلفتْ إلى المكتب باكراً.

استقبلها رئيس القسم بابتسامة واسعة، وهو يطري على تسريحتها الجديدة. استلمتْ منه الوثائق الحمراء، وقد حرصتْ أن تُبدي حماساً لها، رغم أن تفكيرها كله كان منشغلاً بوثائقها البُنيّة.

ما أسرع ما تتبدّل رغباتها، لكن لا بأس. هكذا حدّثتْ نفسها.

تظاهرتْ بالانهماك في قراءة الوثائق، وتعمّدتْ أن يلحظ رئيسها ذلك. لاحظتْ أثناء قراءتها العابرة أنّ بعض الوثائق بها شطبٌ كثير وتعديلٌ بخط جميل. لم تتوقف كثيراً عند ذلك. كان ذهنها يعمل تلقائياً على عقد مقارنة بين الوثائق الحمراء ووثائقها البنيّة. شعرتْ بالرضا وهي ترى وثائقها وقد غدتْ تُماثلها في الإثارة.

انتبهتْ إلى أنها كانتْ تلوك قلماً بنهم كبير، فنزعته محرَجَة، وهي تراقب إنْ كان قد لاحظها أحد.

أعادَت الأوراق إلى رئيسها بامتنان، وشرعتْ في طباعة قصتها المعدّلة. كانتْ تُدخل كل حرف بشعور هو خليط من الرهبة والإثارة. فهي لم تكتفِ بالبحث عن تتمة القصة وحسب، بل عدّلتْ في أساسها وحقنتها بالحياة.

فكّرتْ أن صاحب القصة لو أُتيح له أن يختار بين حياته المبثوثة في الوثائق البنيّة، وقصتها، لانحاز لها ربما واختار حياة جديدة. ذهب تفكيرها بعيداً وهي تتساءل أيّ الحياتين أقرب إلى الحقيقة؟ ما الذي يجعل وثائق دائرة الأرشفة هي التأريخ، رغم أن وثائقها أكثر شَبهاً بالحياة؟ أوليسَ التأريخ في نهاية الأمر هو الحياة في زمن مضى؟

أرضَت الفكرة الأخيرة غرورها، فشرعتْ تبحث في حصّتها الجديدة عن وثيقة تصلح كأساس تبني عليه قصة أخرى.

لم يطل بحثها فقد وقعتْ عينها على وثيقة بدتْ مناسبة.

«فهي تحكي عن مطرب شهير كان يتطوّع بأن يجوب بلاد العالم ليُحيي حفلات بين الإرتريين يجمع على إثرها الأموال التي تذهب لشراء الأسلحة وما تحتاجه الثورة. استمرّ عمل المطرب لسنوات عديدة، وكان بذلك يتجنب المشاركة في القتال مكتفياً بالسفر والغناء. لكنه لم يتوقف عند هذا الحدّ، فقد كان يُطالب باستمرار بزيادة حصته من مداخيل حفلاته، وكانتْ قيادة التنظيم تذعن دائماً لمطالبه حتى لا تخسر مورداً هامّاً. وكثيراً ما وعدته بمنصب رفيع بمجرد نيل الاستقلال، حتى تكبح جشعه، وحتى لا يُفكّر في الغدر والاستقلال بحفلاته لصالحه الشخصي.

ما إن جاء التحرير، حتى رجع على الفور يسأل عن المنصب الموعود. ولمّا كان التنظيم لا يُعيّن إلا أصحاب الكفاءات العالية، فقد كان من المستحيل تقليده منصباً هاماً، وهو مجرد مطرب لا يملك إلا صوته الحسن.

غضب المطرب ممّا اعتبره غدراً من قبل القيادة، فاعتزل الناس، وهناك من يقول بأنه حمل أسرته وغادر البلاد، خاصة أن أمواله التي جمعها طوال سنوات الثورة توفّر له حياة كريمة في أي بقعة يقصدها».

أعادَت الفتاة قراءة الوثيقة مرات، وهي تبحث عن مدخل تبدأ منه تعديلاتها على الوثيقة. كان من الصعب عليها أن تهتدي إلى المطرب في أسمرا، فالوثيقة لم تذكر عنواناً له، كما أنها لم تحسم أمر بقائه في البلاد أو مغادرته بشكل نهائي. عاودتها الحيرة، وهي تصطدم بصعوبة أن تبدأ حكاية من الصفر دون آثار تتبعها. خطر لها أن تستعين بجدّتها مجدداً. بدا ذلك مُحبطاً بعض الشيء، لكن لا مناص منه قبل أن تتمرّس على الحكي أكثر.

«علمتُ أن أداءك يتحسّن بشكل متسارع. إذا استمرّيت على هذا النحو ستحققين رغبتك في وقت وجيز».

نزعت القلم من فمها بحركة سريعة مرتبكة وقد قطع مدير الدائرة أفكارها، ودخل المكتب دون أن تنتبه له. شعرتْ أن إطراءه كان بُغية إرضائها بعد كلامه القاسي. كان جليّاً أنه يخشى خسارتها لصالح غريمه رئيس القسم. فكّرتْ في تجاهل تلميحه

السخيف بإمكانية أن تنتقل إلى الوثائق الحمراء، لكنها لم تشأ أن تُثير ريبته. رسمتْ على وجهها ملامح امتنان، فامتدّتْ يده تلقائياً تفتل طرف شاربه، قبل أن يغادر وهو يشعر بالرضا.

التفتتْ نحو رئيسها الذي كان يُراقب الموقف بشيء من الحنق وهو يرمش بتوتر. بدت مهمتها تزداد صعوبة وهي ترى الرجلين يتعاركان عليها، ولن يربح أحدهما إلا بخسارة الآخر، بينما تخسر هي في كل الأحوال.

في المقابل كان شيء من الارتياح قد تسلّل إليها، وقد أدركتْ أن تعديلاتها على الوثيقة مرّتْ دون أن ينتبه لها أحد؛ لا المدير الذي خرج راضياً، ولا رئيس القسم الذي يبدو مشغولاً بها أكثر مما تقوم بإنجازه.

حين غادرتْ، كان الطبيب في انتظارها، وفي يده باقة ورد.

قابلته بابتسامة فاترة، وهي تحاول إخفاء الضيق الذي اعتراها من رؤيته. تذكّرتْ أنها لم تعترض حين عرض اللقاء بها مجدداً، لكنّ هذا كان البارحة، وهي اليوم لا تريد رؤيته. لا تُريد إلا إنجاز مهمتها الجديدة.

تلقّتْ باقة الورد وهي تُشير إلى سيارة أجرة. بدا متفاجئاً من تصرفها الفظّ.

«ألا تُريدين سماع ما سجّلته الليلة الفائتة؟».

كان حديثه أقرب إلى التوسل منه إلى السؤال. ركبَت السيارة وهي تُخبره أنها لا تملك مزاجاً لسماع شيء. لم يخطر ببالها أن تلتفتْ إلى الوراء والسيارة تُغادر مسرعة. كانتْ تريده هكذا، بعيداً بما يكفي لتقرِّر هي متى تراه أو تستمع إليه.

خطر ببالها أنّها قد تكون أخطأتْ مرتين حين أخبرته بالأمس أنها سريعة التعلّق بالناس؛ مرة لأنّها لم تكن لتتعلّق بأي أحد، ومرة لأنّه ولا شك سيظنّ أن الكلام يعنيه.

ما إن استقرّت السيارة أمام البيت حتى نزلتْ دون باقة الورد التي تركتها تغادر مع السائق، دون شعور بأي أسف.

في البيت وجدَت الجدّة في انتظارها، وقد بدأتْ في تحميص قهوتها. كان الحماس يطفر من عيني الفتاة، فبادرتها الجدّة بالسؤال إن كان ثمة حكاية جديدة.

انتهَت الفتاة من سرد حكايتها كما وجدْتها في الوثائق البُنيّة، وانتظرتْ أن تُدخل عليها الجدّة تعديلاً. هذه المرة كانتْ تخشى أن تروق القصة للجدة كما هي، فلا تجد مبرراً للتدخل، وحينها لن يكون بمقدور الفتاة أن تُضيف شيئاً لما هو موجود في دائرة الأرشفة، لكنّ خوفها تبدّد وهي توافق فوراً على اقتراح جدّتها بتعديل طفيف:

«لم يكن المطرب طامعاً في منصب، بقدر ما كان ينطلق في عمله من رغبته في خدمة الثورة بالشيء الوحيد الذي يُحسنه. وهذا ما جعله وفيّاً لعمله طوال عدة سنوات. فكّر كثيراً في ترك

الغناء والتوجه إلى ميدان القتال، لكنه أيقن في النهاية، أنه لن يتمكن من خدمة الثورة بأفضل ممّا يفعل الآن.

حين جاء الاستقلال، عاد إلى البلاد وقد أدرك أنّ مهمته انتهتْ على أفضل وجه. لم ينشغل كثيراً بما رآه من تهافت رفاقه على المناصب الحكومية. آثر الانعزال عن كلّ ذلك الصخب، لكنه لم يكن يتسامح مطلقاً حيال أي اعوجاج في مرامي الثورة. هذا الأمر ألّب عليه أصدقائه قبل الخصوم. تعرض لتهديدات كثيرة بالسجن أو التصفية. خشي على أبنائه، فقرر مغادرة البلاد إلى السودان، حيث استقر في كسلا التي كان قد اشترى فيها بيتاً من مدخراته التي جمعها أيام النضال».

لم يكن تغييراً طفيفاً الذي أدخلته الجدّة على الحكاية. كان كافياً لقلب ما حدث رأساً على عقب. ومع هذا فقد بادرتْ باقتراح آخر:

«ما رأيكِ لو أدخلنا عليها تعديلاً آخر؟».

بدَت الجدّة وكأنها تعرِض مهاراتها، تشرع المزيد من النوافذ على غرفة ضيقة، فتُحيلها إلى فضاء رحب. لم تُجب الفتاة وإنما اكتفتْ بهزّ رأسها موافقة، والحماس يملأ صدرها.

«لم يكنْ المطرب تابعاً لأي تنظيم إرتري، كانت الثورة وجهته الوحيدة. لهذا لم يكن يقبل بتقاضي أي مقابل نظير حفلاته حول العالم، إلا ما يكفي إعاشته وتنقلاته. ولأن الثورة ظلّتْ نصب عينيه حتى بعد تحقيق الاستقلال، لم يكن يرضى بخيانتها

مطلقاً. وحين زاد الغضب منه وأدرك أنه سيُسجن لا محالة ودّع عائلته الصغيرة، وجلس ينتظر سجّانه الذي لم يتأخر كثيراً. خشيت زوجته على مصير أبنائها بعد اعتقال زوجها، فقرّرت الهرب إلى كسلا السودانية، حيث عملتْ في مهن وضيعة كي تُعيل أبناءها، وهم الذين لم يترك لهم والدهم شيئاً يستندون إليه، فقد فاته في خضم بحثه عن الاستقلال أن يدّخر شيئاً لنفسه».

ظلَّت الفتاة مأخوذة بما سمعته، بالوجوه العديدة للحكاية الواحدة. شعرتْ أنها عاشَت الأحداث بالفعل. تقلّبتْ في احتمالاتها. ومع هذا فثمة شيء ناقص، شيء يعنيها، ينبع منها. لم تدْر بنفسها إلا وهي تطلب من جدّتها أن تُحاول بدورها التغيير قليلاً في مسار الحكاية. وافقَت الجدّة بترحاب بالغ.

«غاب المطرب عن الأنظار والكل يظنّه مسجوناً، بعد أن ابتلعته الثورة التي ناضل من أجلها. كان الناس يشعرون بالأسى لمصيره ومصير أسرته التي بعثرها الشتات والفقر في بلد غريبة. وحده كان يعرف أنه اختطّ طريقاً مختلفة. فقد استخدمه النظام للإيقاع بخصومه. زرعه في عنابر المقبوض عليهم من تنظيم منافس، يستغلّ مظلوميته المعروفة للجميع ليطّلع على نوايا السجناء وينقلها إلى النظام. في المقابل كان النظام قد وفّر له غرفة معيشة مرفّهة، يرتادها كلما أوقع عليه الضباط عقوبة السجن الانفرادي. لم يبد الأمر انقلاباً كبيراً في سلوك المطرب، فطوال مسيرته الفنية، كان عيناً للتنظيم على خصومه مستفيداً من قناعة الجميع أنه لا ينتمي إلى أي فصيل».

لم تُصدّق الجدّة ما سمعته.

كانتْ فرحتها تفوق فرحة حفيدتها وهي تتلقى المديح. أخبرتها أنها الآن قد خطتْ أولى خطواتها الكبيرة كي تكون حكّاءة بارعة. ها هي للمرة الثانية، تُبدع حكايتها الخاصة، وتُثبّتْ موهبتها الكبيرة. شعرَت الفتاة بالزهو والجدّة تُخبرها أنها ستُصبح قريباً أفضل منها. كانتْ سعادتها هذه المرة حقيقية، على خلاف المرة السابقة، حين ادّعتْ زوراً أنها تملك حكايتها الخاصة.

أدركَت الجدّة أن الفتاة التقطتْ في المرتين، ما كان ينقص حكاياتها، فالحياة تُعطي ظهرها للطيبين منذ الأزل، بينما تُحاول هي دوماً إعادتهم إلى الواجهة دون جدوى. وها هي الفتاة من المحاولة الأولى، تنتبه لذلك وتحقن حكايتها بالشرّ، فتأتي أكثر اقتراباً من الحياة.

أمسكَت الفتاة بالمِغزل العاجيّ. مرّرتْ أصابعها تتحسَّسه. شعرتْ أنّها باتتْ قريبة من فهم سرّه العظيم.

بدا لها أنّ نهر الحكايات كان مختبئاً في مكان قريب، تحت جلدها تماماً، وكان ينتظر لحظته ليندلق كشلّال من نور.

الشريط الرابع

(1)

برعت الفتاة في أدائها كثيراً.

أصبحتْ تعبث بالوثائق البنيّة دون كثير عناء. قلّ تدخل الجدّة في تعديل حكاياتها، وأخذت تكتفي في الغالب بدور المستمعة. أصبحَت الفتاة تُجري تعديلاتها في المكتب دون أن تُثير ريبة أحد، وتحملها طازجة لجدّتها، تتباهى بقدراتها المتنامية، بموهبتها في فكّ الحكايات وإعادة تركيبها بطريقتها الخاصة؛ شيطنت الطيبين، وأعادَت القساة إلى جادة الصواب. لعبتْ بالمصائر والأقدار، لعبتْ في الأعمار، والمشاعر، والدوافع. أصبح العبث هوايتها المحبّبة. كانتْ تشعر أن شخصياتها ممتنة لها، فهي تساعدهم على النمو، على اكتمال حيواتهم الناقصة، بأشهى ما يمكن. ساعدها في ذلك يقينها أن رئيسها لا يراجع وثائقها في زحمة اهتمامه بكسب ودّها.

لم يكن يعكّر حياتها إلا مطاردة الطبيب لها. وكان صدّها له في كل مرة أكثر قسوة دون أن تشعر تجاهه بأيّ تأنيب ضمير. كرهتْ فيه التصاقه بها، دأبه الذي لا يهدأ. ندمتْ على منحه

الفرصة الأولى، والتي كانتْ بمثابة طريق بمسار واحد، مرّ بها وتعذّر إعادته في الاتجاه الآخر. ندمتْ أكثر أنّها لم تتعظ من حكايته عن حبّه لكل النساء من حوله. لم يتبقَّ أمامها إلا الأمل بسرعة عدوله عن مشاعره هذه.

شعور الإثارة الذي خلّفه خلق الحكايات، كان يُخالطه الخوف من الاعتياد، هاجسها الدائم. كانتْ تخشى أن يتسلل إليها الملل مجدداً حتى مع مبعث بهجتها. لهذا سعتْ ألا تظلّ كثيراً في طريقة حكي واحدة.

انتبهتْ أنها عادة ما تبحث في وثائقها عن القصص غير المكتملة، عن النهايات المفقودة، وهذا قد يُوقعها مع الوقت في الرتابة التي تهرب منها.

خطر لها أن تُجرّب العبث مع الحكايات الكاملة، مع الأقدار المرسومة بدقّة. فكّرتْ أنّ الكمال يختزن في حقيقته شوائب النقص. انتابتها رغبة عارمة في أن تعبث بالخطوط المستقيمة، تلك التي يعرف الجميع من أين تبدأ وإلى أين تنتهي. أن تُلقي بأحجار كبيرة في ماء المألوف والمتوقع. خطر لها أنه لا شيء يبعث على الملل أكثر من الحكايات المكتملة، وأنّ الحياة في حقيقتها رحلة أقرب إلى النقص منها إلى الكمال، وأنّه ما كان بمقدورها أن تُغري أحداً، لو جاءتْ مكتملة لا مكان فيها لخطوة جديدة.

نحّتْ وثائق كانتْ تُغريها قبل إلحاح الفكرة الأخيرة.

بدأتْ تبحث عن حكاية عادية. أمسكتْ بورقة شعرتْ أنّها قد تفي بالغرض. أخذتْ تقرأ بتمعّن. قرّرتْ أنها ستتجاهلها بمجرد أن تشعر بأي إثارة في أي جزء منها. واصلَت القراءة، بدأ يزعجها حجم الرتابة فيها، لكنّ هذا ما تُريده. انتهتْ منها دون أن يلفت انتباهها شيء فيها. أدركتْ أنها امتلكتْ ما تبحث عنه؛ حكاية مكتملة.

«كانت الوثيقة تحكي عن ممرض ستيني في قرية على أطراف العاصمة، كرَّمته الدولة على جهوده الكبيرة في حرب الاستقلال، فقد كان يرافق المقاتلين، يُعالج الجرحى، ويتفانى في رعايتهم. مع غياب الطبيب المختص، أصبح في مرتبة الأطباء. اشتهر بإنقاذه لعشرات الأطفال الذين ابتلعوا حلويات مسمّمة كان ينشرها عملاء العدو في القرى، وأودت بحياة عشرات غيرهم. فقد كان هو أول من اكتشف سبب وفيات الأطفال المتزايدة، قبل أن يتفرغ لأشهر طويلة وهو يجوب القرى يُحذّر الأهالي أو يعالج أطفالهم.

بُعيد الاستقلال عاد إلى قريته، وحوّل منزله المتواضع إلى عيادة سرعان ما أصبحتْ مقصد مرضى القرية والقرى المجاورة. كان الجميع يُجلّه ويحتفظ له بالفضل، حتى بعد أن كبر في السنّ وأصبح أقلّ نشاطاً.

ابنه البكر على وشك تحقيق حلم والده بالتخرج طبيباً في جامعة أسمرا. وزوجته قروية لا تملك أي طموح خارج رعاية أسرتها، وقد اكتسبتْ مع الوقت شيئاً من خبرته، فأصبحتْ

ممرضته الوفية. كل هذا جعله يعيش حياة هانئة. وقد جاء التكريم الأخير، ليتوّج حياته الطويلة، ويمنحها النهاية اللائقة.

حين مات خرجَت القرية كلها في جنازته التي حضرها مسؤولون رفيعون، قبل أن يمنحه الرئيس لاحقاً وسام الدولة من الدرجة الأولى».

لمعتْ عينا الفتاة وهي تهتدي لما تريد فعله بحكاية الممرض الطيب. التفتت إلى زملائها فوجدتهم غارقين في عملهم. عبّأت صدرها بهواء جديد، وشرعتْ في الكتابة بيدين متحفزتين:

«لم يكن يخطر بباله أنّ هذا اليوم الهادئ سيُغيّر حياته إلى الأبد. فأثناء عودته من الميدان لتفقد عائلته، لمح فتاة تقطف تيناً شوكيّاً وتودعه سلّتها. لم تنتبه له، وهو ما مكّنه من التمعّن في ملامحها الآسرة. بدا مأخوذاً بجمالها، وهو يقترب من مكانها. غرق في انحناءاتها وهي تصعد وتهبط للحاق بثمرة بعيدة. للحظة نسي زوجته وطفله الصغير، نسي الميدان الذي ينتظر عودته، ولم يعد يُفكّر إلّا في الفتاة التي وخزتْ روحه من الوهلة الأولى.

أخيراً انتبهتْ لوجوده. لم ترتبك، بل ابتسمتْ بغنج طرق قلبه بوجع لذيذ. ما إن قدّم لها نفسه حتى بادر بعرض الزواج منها. أطلقَت الفتاة ضحكة ماجنة أسالت لعابه. اقتربْ منها أكثر حتى كاد يلمسها، مالتْ إلى الوراء وهي ترسم على وجهها غضباً طفوليّاً:

«ولكنّي متزوجة».

تجاوز الرجل صدمته سريعاً وهو لا يُفكر إلا في الحصول على الفتاة:

«أين زوجك؟ سأقنعه بأن يُطلّقك».

ضحكتْ مجدداً وهي تتبع ببصرها البندقية التي أشار إليها.

«وهل سأقبل بقتل زوجي من أجل رجل يريدني لبعض الوقت قبل أن يرميني؟».

كاد يهجم عليها وقد استثارته جرأتها. أخبرها أنه يريدها للأبد. سيصبح عبداً عند أقدامها العمر كلّه. سيُطلّق زوجته، ويترك مرافقة الجنود ليبقى معها.

«حسناً لستَ في حاجة إلى قتل زوجي، لأنه لم يأتِ بعد، ولستَ مضطراً لتطليق زوجتك. ما رأيك لو جرّبنا بعضنا في البداية».

لم يُصدّق الرجل ما سمعه. كانتْ جرأتها تهزّ أوتار قلبه بشدة. حاول أن يحتضنها، لكنها صدّته مجدداً:

«ليس الآن. تعال في المساء. سأكون في انتظارك في تلك الدار، وسأكون وحدي».

غادرَت الفتاة وقد نشبتْ فتنتها في ضلوعه. ظلّ في مكانه ساهماً. قرّر أن ينتظر المساء، أن ينتظر هذه الزهرة التي تفتّقتْ في الظهيرة عن شجرة التين الشوكي.

لم يبرح المكان يعدّ الوقت طوال النهار، حتى جاء المساء أخيراً. بدتْ أزهى وأشهى وهي تنتظره خلف الباب الموارب.

ما أقسى الأبواب، ما أعظم جبروتها، وهي تملك هذه المسافة بين امتلاك الرغبة والحرمان منها. كان الباب غَنِجاً مثلها، يدعوه نصف دعوة، ونصف حرمان، ونصف اشتهاء ونصف تمنّع.

أغلقَت الباب بعد أن تجاوزاه معاً. ما أشهى باطن الباب، وما أعذب طلّته.

قضى الليل بأسره يتقلّب في نعيمها. جرّب امرأة مختلفة وهو الذي كان يظنهنّ سواء. أيقن أنه بمجرد أن تتولّى النساء زمام السرير، يُدرك الرجل تماماً كم هنّ مختلفات.

مع طلوع النهار طلبتْ منه المغادرة. رجاها أن يظلّ. أن يصمت أو يتكلم، أن يبكي أو يضحك. المهم أن يبقى عندها. كان قرارها صارماً:

«تعال عند المساء، وهذه المرة لأسمع رأيك».

لم يكن محتاجاً لينتظر المساء. بإمكانه أن يُخبرها برأيه الآن. فالسعادة لا يحكمها الوقت، هي تصنع الزمان والمكان. لكنّها مجدداً طلبتْ منه المغادرة بتصميم أكبر.

عاد إلى بيته مشوّشاً. كانت الزوجة في انتظاره في كامل زينتها. لم يرها بأبشع ممّا هي عليه الآن. زاد يقينه باختلاف النساء. دخل غرفته وتظاهر بالنوم في انتظار المساء.

ابتلعَت الزوجة خيبتها، وتمدّدتْ إلى جواره، تنتظر المساء هي الأخرى، لكن على أمل أن يُغادره التعب ويُقبل عليها.

لم تنمْ في انتظاره، ولم ينم في انتظار الفتاة. وما إن جاء المساء حتى ارتدى ملابسه وخرج مسرعاً، بينما الزوجة تهرول وراءه قبل أن يحجبه الباب عنها.

مجدداً زاره خاطر الأبواب، شاسع هو الفرق بين باب بيته وبابها. الأبواب لا تأخذ قيمتها إلا حين نكون قبالتها، حين نهرع إليها، عدا ذلك فهي باردة وغارقة في النسيان.

تقلّب الرجل في نعيم الفتاة لأيام، قبل أن تعود لطرده. هذه المرة أمرته ألا يأتي قبيل مضي شهر كامل. جنّ الرجل. توسّلها أن تعدل عن قرارها، أن تقلّل المدة على أقل تقدير. رفضتْ بحزم. هدّدها. وضع السكين على نحرها، ولما رأى عزمها عاد يبكي عند قدميها، قبل أن يُغادر ذليلاً منكسراً.

غاب شهراً عنها دون أن يغيب. أمضى الوقت كله يراقبها من بعيد. يملأ عينيه بها. يحرسها بقلبه وجوارحه، بعد أن استوطنتْ فيها. وما إن انقضى الشهر حتى كان راكعاً عند قدميها مجدداً.

«إذا أردتَ أن تبقى معي، فلا بدّ أن نعمل سوياً».

لم يهتمّ كثيراً للهجتها الصارمة، تجاوز ملامحها الجادة وهو يُبدي استعداده الكامل حتى قبل أن تُكمل حديثها.

أخبرته أنها تجوب القرى ليلاً لتنثر في طرقاتها حلوى

مسمومة، وطلبت منه مساعدتها في ذلك، وستضمن له عائداً ماليّاً مجزياً، إضافة إلى الليالي التي ستمنحه إياها بسخاء.

أفاقته كلماتها من سكرته العميقة. أراد أن يثور، أن يصفعها، أو يقتلها بيديه العاريتين، لكنّ شيئاً أقوى كان يشلّ أطرافه، ويُجبره على الإطراق.

مالتْ عليه حتى غاص نهدها المكتنز في صدره، وهي تُعيد على مسامعه العرض بصوت أقرب إلى الفحيح.

كان تائهاً. يُفكّر في مهنته، في النضال، في قضيته التي يعيش من أجلها. فكّر في الأطفال الذين سيقتلهم بالسمّ، فكّر في طفله وهو يلاقي مصيرهم.

لكنه كان لا يزال عاجزاً عن أن يغضب.

تذكّر احتقاره الدائم للعملاء الذين يشتريهم العدو بأثمان واهية. تخيّل نفسه واحداً منهم. شعر بالمهانة، بالقذارة تُغطّيه من رأسه إلى آخر قدميه.

لكنه كان لا يزال عاجزاً عن أن يغضب.

«لن نبدأ الليلة، فقد خصّصتها لك. سأمنحك ما سيُنسيك الليالي الماضية».

لم تنتظر جوابه. دلفتْ إلى بيتها وتركَت الباب موارباً. لعن الأبواب وتلاعبها بمصيره. كان لا يزال قبالة الباب. فكّر أن يُعطيه ظهره فينتهي كل شيء، لكنّ بابها كان مختلفاً. أيقن أن

الأبواب كالنساء؛ متى كان الأمر بيدها، عرفنا كم تبدو مختلفة عن بعضها.

كاد يُحرقه الباب الموارب، فدخل وصفقه خلفه. شعر بالراحة وقد ترك الباب خلفه بارداً. ومعه ترك كل هواجسه غارقة في الصقيع».

كادَت الفتاة تبكي من الفرح، وهي ترى الوثيقة وقد اشتعلتْ بالحياة. شعرتْ أنّها أحبَّت الفتاة اللعوب، أنها تُشبهها، أو تنتمي إلى زمنها على الأقل. تذكّرتْ جدّتها وهي تُخبرها يوماً أن كل الحكّائين إنما يغرفون من ذواتهم بشكل أو بآخر. امتلأتْ بالامتنان لفتاتها التي تواطأتْ معها لتُصبح الوثيقة أبهى. تمنّتْ لو كان المِغزل العاجيّ قريباً منها الآن، لكانتْ عزفتْ به بمهارة مَن قضى عمره كله ملازماً له.

الشريط الرابع
(2)

كانتْ لا تزال تحت وقع سحر الفتاة اللعوب.

حاولتْ كثيراً أن تنتقل إلى وثيقة أخرى، غير أن قصّتها الأخيرة كانت لا تزال تُبلّلها بالإثارة. لم تستطع طرد الفتاة من تفكيرها. شعرتْ أنها لفرط حضورها تجلس إلى جوارها، تُقلّب معها الوثائق البنيّة، تختلس النظر إلى رئيس القسم المتصابي، إلى السيدتين الغيورين، إلى الرجلين اللذين لم يفقدا الأمل في وصالها بعد.

كانتْ تشعر بأنفاسها قريبة، تسمع صوتها، وتلمس يديها الآثمتين. تعجّبت من فرط تشابه ملامحهما؛ فتنة طاغية، لون خلاسيّ لاهب، وقوام فارع ينبتُ من عمق التراب الأفريقي، استدارات سافرة، وانحناءات غَنِجة. وكانتْ قادرة مثلها تماماً على استدعاء كل هذا البذخ دفعة واحدة.

كان كل ذلكَ يدفع الفتاة إلى فكرة مجنونة؛ فقد خطر لها أن تختلق وثيقة من العدم، أن تمنح فتاتها اللعوب حياة كاملة، أن

تزرعها في سجلات الدولة، فمثلها حريّ بالحضور، حريّ بأن تُصبح حقيقة لا يرقى إليها الشكّ.

هامتْ بفكرتها الطارئة.

أحسّتْ أنّها بذلك إنما تردّ الجميل إلى الفتاة اللعوب. عدّلتْ من جلستها أمام جهاز الكمبيوتر، بينما يتأرجح القلم في فمها، وشرعتْ في كتابة قصتها الجديدة، وقلبها يرقص في مكانه:

«يظنّها الناس مغرورة، لكنّها فقط كانتْ تعرف ما تريد. لم يكن بوسعها أن تقبل بأيّ خاطب يطرق بابها. والدها اقتنع أخيراً برأيها، فأصبح يردّ الطالبين حتى قبل أن يأخذ رأيها. لم يكن يُؤرقها الانتظار طالما أنّها توقن أن رجلها آتٍ لا محالة.

أحبَّت ابن الجيران منذ طفولتها. نشآ سوياً، كان يقضي النهارات الطويلة في منزلها، يحكي لها عن أحلامه التي غدتْ أغلى أمانيها. أخبرها برغبته في الانتقال برفقتها إلى العاصمة، حيث يستطيع لعب كرة القدم في فريقها الكبير. وكانتْ لا تريد إلا أن تكون إلى جواره. تشهد تحقيق أحلامه، وتنتظره في البيت وقد ملأته بالأطفال.

تذكر كيف أنّه كان يلحّ عليها ليحظى بقُبلة خاطفة، لكنّها كانت ترفض بشدة. كانتْ تُحبّه، تُحبّ اقترابه، لكنها كانتْ تخاف، تخاف كل شيء. وكان هذا يغضبه كثيراً حتى اعتاد طباعها فاكتفى بالوقت في قربها.

قبل أن يستكين لخوفها، كان قد دخل معها في رهان خاسر. تحدّاها أنّه سيتمكن في النهاية من إقناعها بمنحه القُبلة المشتهاة، فزاد إصرارها على التمسّك بخوفها وقد أصبح الرهان حافزاً إضافياً. اتفقا أن يستجيب الخاسر لطلبات المنتصر على الفور. قال لها حبيبها، إنه سيطلب قُبلة أخرى متى ما فاز بالرهان وحظي بواحدة. بينما أخفتْ هي طلبها حين تنتصر بمنعه من تحقيق مراده.

مضى الكثير من الوقت والفتاة على حالها حتى يئس الشاب، وأعلن هزيمته، قانعاً بقرارها الذي لم تبرحه لحظة. حين سألها عن طلبها الذي يتوجب عليه تنفيذه فوراً. جاء الجواب مباغتاً:

«قُبلة طويلة».

اندلعَت الحرب، فانخرط الشباب طواعية في صفوف المقاومة. غير أنّ فتاها لم يفعل. اختار أن ينتظر إلى جوارها. كان يعتقد أن الحرب لن تلبث أن تنتهي، فيعاود الركض وراء حلمه، لكنّ الأمور سارتْ على خلاف ما يتمنى. ازداد سعير المعارك، فاضطرَّت المقاومة لإجبار الشباب على الالتحاق بالميدان. حاول الفتى أن يختبئ، لكنّ أحد جيرانه وشى به، فاقتيد صاغراً للقتال. أما هي فظلّتْ تُمنّي النفس بعودته السريعة. تمنّتْ أكثر أن يعود سالماً، دون أن تلتفت له ويلات الحرب.

مع الوقت زادتْ سطوة المقاومة، وأصبح كل ما يملكه

الأهالي مشاعاً لأفرادها، يدخلون البيوت للاختباء أو الأكل، أو دونما سبب. ولم تكن الناس تُعير تجاوزاتهم أيّ اهتمام، فلا شيء يرقى لقداسة مقاومة العدو.

حدث ذات يوم أن اختبأ في منزل الفتاة مقاومان لعدة أيام، كانتْ خلالها الأسرة تقتطع من قوتها لإطعامهما بكثير من الابتهاج. لاحظَت الفتاة أن أحدهما لا يرفع بصره عنها، ثم بدأ في محاولة استمالتها. تجنبّته دون أن تُسيء إليه، فهي كالبقية تحتفظ بكثير من التوقير لكل مقاوم.

هدأَت الأوضاع فسنحتْ فرصة لمغادرة الرجلين دون مخاوف، غير أنهما اختارا المكوث أطول. خمّنتْ أن للأمر علاقة بها، قبل أن تتأكد حين عرض عليها المقاتل الزواج. رفضتْ بلطف وعلّلت الأمر بأنها لا تريد الارتباط برجل لا يستطيع البقاء إلى جوارها. أخبرها أنه سيزورها كلما وجد وقتاً، رفضتْ بشدّة وهي تشعر بإهانة مبطّنة. وافقها الأب على موقفها، وإن كان رفضه للرجل صاحبه الكثير من التحرّج والاعتذار.

رأتْ في عين الرجل غضباً وهو يخبرهم أنه ورفيقه سيغادران مع الفجر، لكنّهما لم يفعلا إلا بعد أن تركا لديها أثراً سيصاحبها لبقية العمر.

أدخلتْ لهما العشاء، وهمّتْ بالمغادرة، لكنّ المقاتل أمسك يدها بقسوة. حاولَت الإفلات وهي تلمح نظرته الشرِهة دون جدوى. شدّها إليه وسط مقاومتها المستميتة. أرادتْ أن تصرخ لكنه كمّم فمها وشرع في تمزيق ملابسها. بذلتْ كل

طاقتها وهي تحاول مقاومته، بينما رفيقه يتشاغل بالنظر إلى السقف تارة وباستراق النظر إليهما تارة أخرى. ضعفتْ حيلتها أمام إصرار المقاتل وقد طوّقها بقوة لا تُطيقها وهو يكيل لها الصفعات. أخذْت تبكي بصمتٍ. تمنّتْ أن تموت في تلك اللحظة، لكنّها كانتْ تتمنى لو تستطيع قتله قبل ذلك. تمنّتْ أكثر لو تستطيع أن تقتل رفيقه، فصمته كان أكثر إيلاماً. فرغ الرجل سريعاً، وقد علتْ وجهه ابتسامة نصر عريضة. أفلتها وهو يعرضها على رفيقه الذي امتنع، فزادتْ مقتاً له، وهو يكتفي من الجرم بالفرجة والحياد. شعرتْ أن من يصمت على القتل، أكثر إجراماً من القاتل، فصاحب الفعل يحقّق رغبته، بينما يكتفي الثاني بتحقيق رغبات الآخرين. غادر الرجلان بعد أن تركاها على حافة الهلع والموت. شعرتْ بجسدها تُغطّيه القروح، قبل أن تُسكب عليه أطنان من الملح الحارق. ملأ الملح وجهها، غطّى عينيها، وتسلّل إلى حلقها. حجب منافذ الهواء والضوء فغرقتْ في العتمة.

قُتلتْ مرة أخرى، وهي ترى قلة حيلة عائلتها. اكتفى والدها بمواساتها. ولم يغضبْ أحد في القرية بعد أن انتشر الخبر فيها. اختار الجميع الصمت والانحياز لصورة المقاومة على حسابها. لم تعُد ترى في وجوه مَن حولها إلا صورة المقاتل المحايد الذي اختار الفرجة على رفيقه وهو يطعنها. شارك الجميع في قتلها فماتتْ مرات عديدة.

لملمتْ أشلاءها وغادرَت البيت.

لم تنتظر عودة حبيبها الذي عرفتْ فيما بعد أنه معتقل في سجون أحد الفصائل المقاومة لأنه اعترض على قتال فصيل آخر، وليس العدو، ومع هذا لم تتعاطف معه. لم تجد سبباً يجعله مختلفاً عن البقية. اختارتْ أن تنتقم لنفسها، لكل القتلى. ضاقَت المسافة عندها بين القاتل وضحيته. لم يعد أمامها إلا الاختيار بين الحالتين. وقد نالتْ كفايتها من الموت، وحان دور الآخرين».

عند هذا الحدّ توقفَت الفتاة عن الكتابة. أحسّتْ بيدها ترتجف. لم تكن تعرف ما إذا كانتْ قد قستْ كثيراً على فتاتها اللعوب. ارتبكتْ أمام قرار الانتقام، لكنّها أيضاً كانتْ تشعر بحجم الوجع. فكّرتْ في تعديل قصتها، في تخفيف الألم الذي نثرته في أرجائها، لكنّها تراجعتْ. خطر لها أن الحكايات الملتبسة هي أكثر صدقاً وبقاء. وأن الحياة ما هي إلا حكاية كبيرة ملتبسة.

أغلقتْ جهاز الكمبيوتر وهي تشعر بعدم الرغبة في المواصلة. امتلأتْ بالحزن والغضب. غادرَت الدائرة بعد أن تشبّعتْ بالحيرة. لم تدْر إن كانتْ فعلاً قد ردَّت الجميل إلى فتاتها اللعوب، أم أنها كانت إحدى الذين ساهموا في قتلها من جديد.

الشريط الخامس

(1)

سلّمتْ نفسها إلى شوارع أسمرا دون مقاومة.

كانت تذرع الطرقات دون وجهة مقصودة. ذهنها مشغول بما أحدثته في قصتها الأخيرة. لوهلة خطر لها أنّ الحكايات مخلوقات جارحة، وأنّ الناس تُخطئ كثيراً حين لا تلتفتُ إلا إلى وجهها المسلّي.

الحكايات كائنات مُسنّنة يجدر أخذها على محمل الجدّ، تغرس أثرها عميقاً، فننتبه بعد فوات الأوان، وقد أدمتْ كلّ ما مرّتْ به. نخلق الحكايات، لكنّها سرعان ما تنال استقلالها، لتُهاجمنا بضراوة غير مسبوقة، وأسوأ الهزائم تلك التي تأتي دون مقدّمات.

أخذتها أقدامها إلى شارع الحرية. مرّتْ بمحلات الخياطة. استوقفتها أشكال المغازل المختلفة، كانت تتأمل نهاياتها الحادّة المعقوفة، لا مِغزل دون نهاية حادة. الحكايات كذلك.

خطر لها أن تجلسَ قليلاً في أحد المقاهي المنتشرة على طول الشارع، قبل أن تلمح عيادة الطبيب. تداعى إلى ذهنها

لقاؤهما الأخير. انتبهتْ للتو إلى غيابه. بدا الطبيب كتلك الأشياء التي لا تحضر بقوة إلا حين تغيب، أو تحضر فقط عبر غيابها. شعرتْ برغبة في الحديث إليه، كانتْ تُريد شيئاً يُخرجها من حالتها، من التفكير في الفتاة اللعوب. بعد تردُّد لم يبقَ طويلاً قصدتْ عيادة الطبيب.

حان دورها فدخلتْ عليه بكامل اعتدادها. كان يتظاهر بالانشغال بأوراقه دون أن يرفع عينيه باتجاهها. لم تتحدّث. ظلّتْ تتأمل ألاعيبه وهي تجد فيها بعض التسلية. رفع رأسه أخيراً، فلمحتْ ربكة جاهد للسيطرة عليها.

«هل عاودكِ الصداع؟».

أحبّتْ لغته المحايدة، رغم أنّ ملامحه فشلتْ في تصنّع اللامبالاة. حركة عينيه القلقة، وطرقعة أصابعه المتعرّقة، فضحا كل مشاريع الصمود التي عزم عليها. بدا أنّ تطرّفه في اللامبالاة هو مبالاة متطرّفة، ولهذا أرادتْ مباغتته:

«اشتقتُ إليك».

أطاحتْ كلمتها المرتوية غنجاً بما تبقّى من إصراره على المداراة. أشفقتْ عليه وهي ترى تعرّق جبينه، وارتعاش يديه. جلستْ على الكرسي المقابل، ووضعتْ قدماً فوق أخرى، فانكشف بهاء ساقيها:

«حسناً.. بالإضافة إلى شوقي، أتيتُ للاستماع إلى تسجيلاتك. أليس هذا ما وعدتني به؟».

انهارتْ مقاومته تماماً، فسارع إلى إخراج آلة التسجيل، وهو يبحث عن الشريط. نسي غضبه منها، نسي خيبة أمله الأخيرة. لم يسألها عن مزاجها المتقلّب تجاهه. هي الآن أمامه وهذا هو المهم.

وضع الشريط، وضغط على زر التشغيل، وهو يملأ عينيه بمفاتن الفتاة التي جاءتْ أخيراً بعد غياب كبير.

«حسناً. . ما الذي يُمكن قوله عن لقائكَ بها؟

كيف نصف الزلازل والبراكين حين تكون قادرة على سحقنا، لكنّها تُحدّق في أعيننا قبل أن تُغادر بهدوء؟ كيف نصف رصاصة تحرق الهواء أمام جباهنا، دون أن تلمس شيئاً فينا. كيف نصف الموت، حين يتعرّى أمامنا، ثم يختار أناساً آخرين؟

حين ننجو من كل ذلك؛ هل نكون قد نجونا بالفعل؟

ما الذي يمكن قوله عن الحياة، حين تغيب العمر كله، ثم تأتي ونحن نُغمض إغماضتنا الأخيرة؟

قالت لكَ إن صوتكَ جميل ببحة محببة، ومن حينها وأنتَ تحيا به؛ تتذوق بصوتك، تفكّر بصوتك، تفرح به، وبه تحزن. تُجربُ تعويض كل ما فاتكَ منه، وأنتَ ساهٍ عنه.

لم تنتبه مطلقاً قبل لقائكَ بها، إلى أنّ الحياة أجمل من أن تُعاش. الحياة تُلتهم، تُخبّأ في الحدقات، تسبح في دمائنا في دورة لا تنتهي. الحياة كالهواء، نملأ به صدورنا، لكن دون أن نُفكّر للحظة في إطلاق سراحه.

هل تذكرُ هي لقاءكما؟ بالأحرى، هل تذكرُ هي كل لحظة فيه؟

أنتَ لا تزال.

لا تزال تذكر فستانها القصير، ووجومها المحبب، خطواتكما في البحث عن مقهى. تذكر الطاولة المستديرة الصغيرة، الكراسي الخشبية، نظارتها الشمسية التي كنتَ ترى فيها ملامحكَ وقد غدتْ أجمل، النادلة القبيحة، قهوتها المُرَّة التي ينبعث بخارها الحار متموّجاً بغنج، وكأس الماء الذي ظلّ محروماً من شفتيها إلى الأبد.

أشفقتَ أنتَ على الكأس.

كان على بُعد نظرة منها، لكنه مع ذلك لم يصل.

ما أسوأ أن نكون قريبين إلى هذا الحد، دون أن نصل.

لا تزال تذكرُ كل شيء.

حسناً. . كي تكون صريحاً معها، أنتَ لا تذكر كل شيء. لا تذكر ما الذي كنتَ ترتديه، لا تذكرُ إن كنتَ قد ارتشفتَ من قهوتك. . عفواً، هل كانتْ قهوة، أم شاياً؟ غاب كل ما يخصّك في بهاء تفاصيلها. هل كنتَ موجوداً؟ لم يبق في ذهنكَ إلا هي.

هي بكل ما فيها.

لا تعرفُ لِمَ يبدو أنكَ هذه المرة إزاء حكاية مختلفة! فعلى وفرة النساء اللائي أحببتهنّ، لم تكن يوماً من يُبادر بالصدّ.

جميعهن اخترن أن يتركنك على قارعة طريق غائمة بين الشكّ واليقين. لم تكن تعرف إن كنّ اخترن الرحيل بالفعل، أم ثمة سانحة للعودة. كان القرار أحاديّاً، مبهماً، ودائماً دون مقدمات. كان كل شيء ينتهي تماماً بعيداً عنك وأنت المعنيّ الأول به.

المرة الوحيدة التي قررتَ فيها الرحيل من تلقاء نفسك، المبادرة بالتجاهل، اعتراكَ تردد هائل. كنتَ مشفقاً على الفتاة. صحيح أنها لم تُبدِ أي عاطفة نحوكَ حين أخبرتها بإعجابك، ولم تكن لتحزن على قرارك. ومع هذا فقد انشغلتَ بشعورها، وقد قرر معجب عابر أن يتراجع وينسى الأمر. كنتَ تعرف كم هو مؤذٍ أن يتخلى شخص عن الإعجاب بنا، حتى وإن كنّا لا نُبادله الشعور نفسه.

حين حسمتَ أمرك، لم تقوَ على مجرد التجاهل، ولم تكن في المقابل قادراً على مواجهتها بقرارك. أخيراً اخترتَ أن تكتبَ لها رسالة لطيفة تحفظ أقصى ما يمكن من كرامتها. جهدتَ في اختيار كلماتك، شطبتَ كل الكلمات المباشرة، واخترتَ عوضاً عنها تلك التي تتسلل بهدوء حاملة المعنى نفسه، أو أقلّ قليلاً.

حين انتهيتَ من الرسالة، وأصبحتَ جاهزاً لإرسالها، تلقّى بريدكَ رسالة منها.

أخبرَتْكَ بكلمات غاية في الوضوح أن اقتحامكَ لحياتها يزعجها، وأنكَ لا تُشبه على الإطلاق الشخص الذي قد ترتبط

به، وأنها ترجوكَ أن تغادر عالمها بهدوء حتى لا تضطر لوضع حدٍّ لكَ بطريقة أخرى.

إذن حتى المرة الوحيدة التي قررتَ فيها الرحيل من تلقاء نفسكَ؛ لم تكن صاحب القرار. ومع هذا لم تغضب. سيبدو غريباً ربما لو اعترفتَ أنكَ ارتحت كثيراً، فما كان سينتهي في كل الأحوال، انتهى دون أن تتسبب في ترك أثر في الجانب الآخر. أما جانبكَ، فكان معتاداً ومتصالحاً.

لكنكَ اليوم أمام حدث غير معتاد، يقلب حياتكَ رأساً على عقب».

لم ينتهِ التسجيل غير أن الطبيب أوقف الشريط بحركة مرتبكة:

« هذا كل شيء».

أحسَّت الفتاة أن الطبيب يُخفي شيئاً. طلبتْ أن تواصل الاستماع، رفض بارتباك أكبر. أخبرها أنّ ما سمعته هو كلّ ما سجّله بعيد لقائهما في المقهى، وأنّ ما تبقى يتعلّق بأمر آخر. خطر لها أن ما يُخفيه يخصّ لحظة صدّه عند مدخل دائرة الأرشفة. أصرّتْ على الاستماع إلى بقية الشريط، فصدق حدسها، حين استجاب بتوتر:

«ها هو الموت يحضر أخيراً.

مَن قال إنكَ إزاء حكاية مختلفة؟

ها هي الرصاصة تتوسط القلب. مَن قال إن الأقدار تُمهلنا

إلى الأبد؟ هي فقط تتسلّى بتفويت مواعيدنا، تقهقه لفرحنا الساذج بالنجاة. تُردينا حين يحلو لها. نحن لا نموت إلا حين تفرد الحياة ذراعيها بوجهنا.

قالتْ لكَ إنّ صوتكَ جميل ببحة محببة. وما المهم في هذا؟ هل سيُغيّر هذا شيئاً من دمامتك؟ هل سيُغيّر من غرور الجميلات؟ من غبائهن بالأحرى؟ من بحثهنّ الدائم عن جمال موازٍ، عوض تجاوزه إلى ما هو أهمّ؟

لكنْ هل هناك فعلاً ما هو أهمّ من الجمال؟ نعم هناك الكثير، لكنه لا يخطر ببالنا إلا لنواجه به دمامتنا. هذه الدمامة التي يكرهها الجميع، حتى المصابون بها، حين يواجهون مَن هو أكثر دمامة».

شعرَت الفتاة بفداحة موقفها، بالجرم الذي ارتكبته مع الطبيب المسكين، حتى وهي ترى تحرّجه مما سمعتْ، وكأنه يرغب في الاعتذار. كأن زيارتها هذه محتْ كل مشاعره السلبية تجاهها. لم تدرِ ما تقول، بدا الاستمرار في اللعبة مُهلكاً بقدر التراجع عنها. ولا منطقة وسطى بين هلاكين.

«لا عليكِ من كل هذه الترّهات، كنتُ محموماً وقتها».

يصعبُ عليها الأمر أكثر، وهي ترى الرجل يبذلُ نفسه مجدداً. لا يُعجبها هذا، لكنّها انتبهتْ إلى أنّها أصبحتْ تُشبه حكاياتها؛ مسنَّنة وجارحة. كيف تُخبره بضرورة أن يحذر، أن يأخذها على محمل الجد، فيحمي وجهه، ويديه، وروحه؟ أن

يحتفظ بمسافة كافية عن الخطر؟ كيف تُخبره أنّها كائن قاتل، متفجّر؟

ليتها لم تأتِ.

تمنّتْ لو كانتْ قادرة على التجاوب معه، على حبّه، أو كرهه. على البقاء معه على حالة واحدة بحيث لا تُرهق روحه أكثر. لكنّها لا تملك مزاجها، لا تملك تقلباته الكثيرة.

غام تركيزها، ولم تجد شيئاً تقوله، فغادرتْ وهي تلعن الخطوات التي قادتها إلى عيادة الطبيب.

الشريط الخامس

(2)

«في الحقيقة لم يكن هذا إلا جانباً من الصورة، فما لا تعرفه الفتاة أن أبيها الذي بدا مستكيناً وخانعاً إزاء ما تعرضتْ له كان يُرتّب لأمر آخر. ما إن هدأَت الجلبة، حتى حمل سلاحه ليلاً وخرج في أثر الرجلين. استغرق الأمر بعض الوقت حتى ينحّي تقديسه للمقاومة والمقاومين ويلتفت إلى وجعه ووجع ابنته. احتار كثيراً قبل الوصول إلى هذه النقطة، كان عصيّاً عليه حمل سلاحه في وجه المدافعين عنه. لكنهم لم يعودوا كذلك منذ اللحظة التي قرروا فيها طعنه في الظهر.

كان بإمكانه أن يُخمّن وجهتهم، فأحوال الحرب لا تُتيح لهم الكثير من الطرق ليسلكوها، لكن كان ينبغي عليه أن يكون أسرع منهم حتى يُدركهم قبل وصولهم إلى مجموعتهم.

مرّ يوم كامل من المسير لم ينعم فيه إلا بالقليل من الراحة، حتى وصل إلى تلة مرتفعة يلجأ المقاتلون عادة إليها للاستراحة عند سفحها. هناك وجد ضالته، لكنّ المفاجاة كانت أنه وجد الرجلين مقتولين، وإلى جوارهما يقف جاره الشاب، والذي نشأ منذ الطفولة رفقة ابنته قبل أن يُقاد إلى صفوف المقاومة بالقوة.

كان قد تناهى إلى حبيب الفتاة خبر الحادثة، فهرب من معتقله بحثاً عن الرجلين الذين تعرّف عليهما من فرط ما كان الفاعل يتباهى بفعلته حتى شاع خبره بين المقاتلين.

أدرك الشاب غريمه عند التلّة وهو نائم إلى جوار رفيقه، فأيقظهما مرعوبين بطرف بندقيته بعد أن جرّدهما من أسلحتهما. بدا الفاعل أكثر توتراً من صاحبه بمجرد أن عرف مبتغى الشاب، بينما كان الآخر أكثر هدوءاً وأخذ قلقه يخبو خاصة حين طلب منه الشاب أن يسرد ما فعله صاحبه بالضبط.

بدأ المقاتل الشاهد يروي بحياد مطلق جريمة صاحبه، كان يحكي كمن ليس معنيّاً بما جرى، ثم شيئاً فشيئاً أخذ حياده يتلاشى لصالح موقفه مما رأى، فأصبح يُطلق الأوصاف المشينة على رفيقه، وعبارات العطف والرثاء على حال الفتاة، لكن ما إن انتهى حتى بوغت بالشاب يطلب من صاحبه الفاعل أن يقتله.

وضع الشاب البندقية على رأس الفاعل ثم سلّمه مسدساً وأمره بقتل الشاهد على الجريمة. أمسك الرجل بالمسدس وقد ارتسمتْ على ملامحه ابتسامة تشفّ بصاحبه الذي خذله، قبل أن يُفرغ كل الرصاص في الجسد المرتعش خوفاً وذلّاً ومهانة.

كان الشاب مستمتعاً بمنظر الشاهد وهو يرى موته على يد صاحبه، أراحه الفزع الذي طال ملامح الشاهد المحايد غير المبالية، قبل أن يُفرغ هو بدوره رصاص بندقيته في رأس الفاعل، وينتقم لحبيبته ولنفسه قبل ذلك.

عاد الأب إلى بيته حاملاً بشارة ما رأى وسمع إلى ابنته، لكنه وجدها قد رحلتْ. كان قرارها أسرع من رغبته في الانتقام له ولها. كانت قد قرّرَت الانتقام لنفسها بطريقتها».

إلى هنا، اكتفَت الفتاة بما سطّرته في هذه الحكاية. بهذه الطريقة قرّرتْ أن تُكمل ما بدا ناقصاً في حكاية الفتاة. طوال الليل وهي تشعر بمطاردة الحكاية لها، بإلحاحها الكبير على عقلها وقلبها. شعرتْ أنها لن تستطيع ترك الحكاية وهي تنزف ألماً، لكن هل هي بذلك قد خفّفتْ هذا الألم؟

لا تعرف.

كل ما تعرفه الآن أنها لم تعُد ترغب فعلاً بمزيد من العبث في وثائقها البُنيّة.

شعرتْ لأول مرة بحاجة إلى العودة إلى الرتابة قليلاً، إلى إدخال البيانات كما هي، إلى الابتعاد عن الحكايات بأوجهها الكثيرة، وقد أصبحتْ مرهقة.

ها هي تعود صاغرة إلى مَلَلها، تلوذ به، وقد استنزفَت الإثارة روحها. ها هي تهرب ممّا بحثت عنه، تُشيح بوجهها عن قبلتها التي ظلّتْ طويلاً.

بدأتْ في إدخال نصيبها من الوثائق كما هو، تجنبَت التفكير فيما تقرأ، كانتْ تكتب وحسب. قاومتْ إغراء حكايات بدتْ صالحة تماماً للتعديل، وواصلَت الطباعة بدأب آلي.

لم يقطع انهماكها إلا مساعِدَة المدير، تقف أمامها وهي

ترفع نظارتها السميكة بطرف سبابتها، وتُخبرها أن المدير يطلبها في مكتبه. توجّستْ من دعوته المفاجئة، خشيتْ أن يكون قد اكتشف أمرها. التفتتْ إلى رئيس القسم، فلم تخرج إلا بملامح حائرة زادتْ من ارتباكها.

دخلتْ مكتب المدير وهي تجرّ خطاها المتثاقلة. قابلها بابتسامة واسعة يفتل شاربه وهو يلتهم قوامها بنهم:

«أنا سعيد بتطور أدائك سريعاً خلال الفترة الماضية، لاحظتُ بسرور تفانيك ودأبك العاليين».

بدّدتْ كلمات المدير قلقها، فاستعادتْ شيئاً من هدوئها. جلستْ قبالته، وهي تتعمّد الكشف عن بحر ساقيها، فلمَحَت المدير يغرق فيهما من فوره، قبل أن يواصل بحماس أكبر:

«مساعِدَتي ستذهب في إجازة لبعض الوقت، وخطر لي أن تعوّضي غيابها، لكن قبل هذا لا بدّ أن تتدربي على مهامها الحسّاسة. ستعملين في مكتبي خلال القسم الأول من النهار، قبل أن تعودي إلى مكتبك ووثائقك المعتادة. ما رأيك؟».

ترددتْ قليلاً وهي تسمع عرض المدير.

أعجبتها فكرة الابتعاد قليلاً عن وثائقها الشائكة، لكنّها كانت تخشى أيضاً أن تتورط في حكايات لا تملك مقاومة إغرائها، فتعود للعبث مجدداً من باب آخر. بدتْ حيرتها، ما جعل المدير يستدرك عرضه:

«بإمكانكِ الاعتذار عن العرض إذا رغبتِ».

شعرتْ ببعض الامتعاض يُغلّف حديث المدير. كانتْ تُدرك أنه يريدها بقربه أكثر من أي شيء آخر، ومجرد الرفض سيوقعها في شراكِ غيرته الغاضبة مجدداً.

«موافقة».

نطقتْ بها، وهي ترى الارتياح يغمر الرجل. لم يكن أمامها خيار آخر، ومن يدري، فقد تجد في مهمتها الجديدة ما يُخرجها من حالتها هذه.

عادتْ إلى مكتبها، فوجدتْ رئيس القسم في انتظارها والفضول يعبثُ به. أخبرته بعرض المدير فاستشاط غضباً. أخبرها أن المدير يتصرف بصبيانية، لأنه يرغب في اختطافها منه، وأنّه لن يسمح له بذلك. لم تستغرب من لغة رئيسها الطافحة بالوقاحة. لكنها اختارتْ مجاراته، وهي تحتقر هذا الاندلاق الذكوريّ الذي يُحيط بها من كل جانب. أخبرته أنها ستواصل عملها في المكتب إلى جوار مهمتها الجديدة، وأنها ما كانتْ لتقبل بالعرض لو كان يستدعي غيابها الكامل عن هذا القسم الذي أحبّته، وأحبّتْ طريقته في إدارته. تهلّل وجه الرجل لإطرائها الأخير، وهدأتْ عينه التي كانتْ ترمش بتوتر، قبل أن يكرّر استعداده التام لمساعدتها متى احتاجتْ إليه.

* * *

في المساء كانت الجدّة في انتظار حكاية جديدة. إلى جوارها مِغزلها العاجيّ، وبكرات الصوف. لم تطل الفتاة النظر إليها.

لم يكن لديها ما تقوله، أو بالأحرى لم تكن راغبة في تكرار ما فعلته خلال الأيام الماضية. اختارتْ أن تبدو عاجزة عن الاستمرار، على أن تنكأ جراحها من جديد:

«أشعر أني قلتُ كل ما لديّ. ماذا يفعل الحكّاء حين ينضب مَعينه؟».

لم تتفاجأ الجدّة كثيراً بسؤال الفتاة، وكأنها كانتْ تنتظر هذه اللحظة.

أخبرتها أنّ الحكايات لا تأتي من الخارج، حتى لو كانتْ تخصّ آخرين، وأننا حين نشعر بنضوبها، يكون داخلنا هو الذي توقف عن رؤية الأشياء بطريقة مختلفة:

«لا تأتي الحكايات الجديدة إذا بقي إحساسنا على حاله».

أعجبها منطق الجدّة، إيمانها الكبير بالحكي، أخْذه على محمل الجدّ. فاقتربتْ قليلاً مما يشغلها:

«وكيف نحمي أنفسنا من الحكايات؟».

فوجئت بردّ الجدّة وهي تقول لها إن الكلمات مراوغة، لا يمكن الوثوق بها، وهي كالفخاخ، ننصبها بحذر وإتقان، دون أن نضمن تجنب الوقوع في شركها. أخبرتها أيضاً أنّها لن تجد دواء للحكايات، إلا بالحكايات نفسها. وهذا يأتي مع الوقت.

«وماذا يفعل مَن لا يزال في أول المشوار، كيف تُسعفه التجربة وهو لا يملك منها الكثير؟».

ابتسمَت الجدّة وهي ترى محاولات حفيدتها للاستسلام، لكنّها كانتْ أكثر إصراراً:

«نحن نحكي عمّا نعرف، لكنْ إذا تعذر ذلك، فلنحكِ عن جهلنا به. احكي عمّا تحبين، عمّا تكرهين، احكي عمّا فعلتِ، فإذا لم يحدث، فاكتبي عن رغبتك في حدوثه. احكي عن الحياة التي عشتها، أو تلك التي تتمنين خوضها. احكي عن حضور الشيء أو غيابه. المهم ألّا تتركي فضيلة الحكي».

شعرَت الفتاة بحصار الجدّة لها، بإغلاقها كل الطرق المؤدية إلى هجر الحكايات. شعرتْ بها تدفعها للتعايش مع الحكايات، وقد أصبحتْ قدراً لا فكاك منه.

أوتْ إلى فراشها، وقد تحسّن مزاجها بعض الشيء، فكل الذي لا نملك إلا مواجهته، يفقد كثيراً من هيبته.

قبل أن تستغرق في النوم، فكّتْ جدائل شعرها. لم تكن المقونان تليق بحيرتها وحزنها، وهي التي لا تصلح إلا للوجوه السعيدة.

الشريط السادس

(1)

دخلتْ مبنى الدائرة بروح جديدة.

كان المدير قد خصّص لها مكتباً صغيراً إلى جوار مكتبه. مدّ إليها بحزمة وهو يُمطرها بتوجيهاته:

«هذه الوثائق في غاية الأهمية، تعاملي معها بانتباه كبير. ستجدين في كل وثيقة بعض التعديلات والإرشادات، اتبعيها بدقّة، وسأراجع ما تكتبينه، فلا مجال للخطأ هنا، وإذا واجهتك صعوبة استعيني بمساعدتي».

جلست المساعِدَة إلى جوار الفتاة، وهي تُعدّل بطرف سبّابتها كل مرة من وضعية نظارتها السميكة بينما كانت الفتاة تُنقّلُ بصرها في المكان.

هي المرة الأولى التي تتنبَّه فيها إلى مكتب مديرها وقد أصبحتْ تعمل فيه؛ غرفة واسعة، لكنّ الأوراق المكدّسة فوق بعضها قلّلت كثيراً من رحابته. طاولة المدير هي الأخرى تشغلها الأوراق عدا مساحة صغيرة خُصِّصت للكمبيوتر، وفوقها تستقرّ

صورة كبيرة للسيد الرئيس مبتسماً. عدا ذلك كان اللون الرمادي يملأ كل شيء.

تصفحَت الوثائق بشيء من التحفّز، كلمات المدير حقنتها بشيء من التوتر تخالطه إثارة خفيّة. قرأَت الوثيقة الأولى، وتبعتها بالثانية، ثم الثالثة. كانت الوثائق تتحدث عن الرجل الأول في الدولة، عن السيد الرئيس. أربكها الأمر قليلاً، لكنّ الإثارة كانت أكبر، فها هي تلج بهذه الوثائق ذروة ما يُمكن لشخص في البلاد أن يطّلع عليه.

اقتربتْ منها مساعِدة المدير وبيدها ورقة خطّتْ عليها بضع توجيهات قبل أن تسألها إن كانت بحاجة إلى أي عون، ولما تأكدتْ من وضوح الأمر لديها، عدّلتْ نظارتها وغادرتْ لقضاء بعض المهام. التفتتْ صوب المدير، فوجدته غارقاً بين الوثائق، وقد ارتدى نظارة سميكة هو الآخر، لم ترَهُ بها من قبل. كان يُقرّب الورقة من وجهه كثيراً، ثم يمرّر إصبعه على أسطرها ببطء، قبل أن يُعيدها إلى الطاولة، ويخطّ عليها بعض الملاحظات ببطء أكبر، وما إن ينتهي حتى يُعيد الكَرّة مع وثيقة أخرى، دون أن يستخدم كمبيوتره، إلى أن استدعاها ليسألها عن كلمة لم يستطع رؤيتها أو قراءتها، أجابته ورجعتْ إلى مكتبها مستغربة من قبح طريقته في الكتابة.

عادتْ إلى وثائقها التي كانتْ تحكي عن انضمام السيد الرئيس المبكر للكفاح المسلّح، وكيف أنه ترك دراسته الجامعية

في سنته الأخيرة كي يُلبّي النداء. حكتْ عن ثقافته العالية، وانعزاله معظم فترات هدوء المعارك للقراءة والبحث.

أزعجتها التعديلات الكثيرة على سيرته، لكنّها تفهّمتْ ذلك، خاصة حين يرد اسمه مجرداً، أو موصوفاً بالرجل القويّ، وهو ما كان يُشطب ليُكتب مكانه بخطّ جميل «السيد الرئيس». لم تتمكن من قراءة كثير من الكلمات المشطوبة الأخرى، دون أن يمنعها ذلك من الشروع في الكتابة:

«حنكة السيد الرئيس وبُعد نظره كانا الفيصل في تحقيق الانتصار آخر المطاف. فقراره الحاسم بعدم قبول الساحة الإرترية لأكثر من فصيل، والذي وُوْجه بكثير من الاعتراض حتى من قِبَل أقرب المقرّبين ثبت في النهاية أنّه قرار صائب. فلم يكن للإرتريين أن يتفرغوا لقتال العدو ودحره، لولا انتهائهم المسبق وبشكل كامل من التنظيمات الفارغة التي كانت تشوّش على المقاتلين وتؤخر انتصارهم.

بدا السيد الرئيس حازماً في موقفه ذاك منذ البداية، فما يسمّيه الخصوم انشقاقاً عن التنظيم الأمّ، كان في الحقيقة تخلّصاً من عائق كبير، لولاه لظلّت المقاومة حتى اليوم تبذل الجهد لتحقيق الاستقلال دون جدوى.

صحيح أنّ التنظيم الأمّ كان له السَّبق في دخول الميدان، لكنّ ذلك لم يكن كافياً، مع الأمراض التي كانتْ ترتع في صفوفه. فلا يمكن لفصيل طائفي بأساس قبلي أن يُحقّق النصر، وحتى لو فعل فلن ينجح في إقامة الدولة المنشودة».

انتهتْ سريعاً من هذه الوثيقة، دون أن يستوقفها شيء فيها؛ إذ كثيراً ما سمعتْ هذا الكلام. كادتْ تشرع في طباعة وثيقة جديدة غير أنّ مجيء المساعِدة صرف انتباهها، خاصة حين أجلس المدير مساعدته إلى جواره وهو يشرح لها التعديلات التي أدخلها على الوثائق، لتقوم بطباعتها لاحقاً. لم يكن ليخطر ببال الفتاة أن مدير الدائرة لا يُحسن التعامل مع الكمبيوتر، وأنّه يعاني كثيراً لقراءة بضعة أسطر على الورق، ومع هذا فهو لا يُفوّتُ وضع ملاحظاته وتعديلاته عليها بخطّ غاية في السوء. أراحها الأمر كثيراً، فهذا يعني على الأقل أنّ عبثها السابق مرّ بهدوء.

حملتْ وثيقة أخرى فوجدتْ شيئاً مختلفاً:

«ما لا يعرفه كثيرون أنّ السيد الرئيس لم يكن متفوقاً في القتال فقط؛ فيده المدّربة جيداً على معظم الأسلحة، كانتْ يد نحّات بارع، أخرجتْ أعمالاً بديعة لا يزال معظمها يملأ المتحف الوطني في أسمرا. فالمقاتل الجسور، كان يقضي أوقات الراحة في ممارسة هوايته الفريدة في نحت المرمر. ولولا ظروف القتال، لكانتْ منحوتاته الآن تطوف العالم لفرط جمالها وتفرّدها.

وكما أنّ السيد الرئيس اختار أصعب الطرق وأشدّها وعورة لجلب الاستقلال، فقد اختار المرمر دون غيره لممارسة هوايته، رغم أنّ المرمر حجر حسّاس وبالغ التعقيد. إذ يتوجّب على النحّات هنا، وأثناء عمله على تشكيل الحجر، أن ينتبه للعروق

الدقيقة التي تجري في ثناياه. فلا قيمة لحجر المرمر دون عروقه التي تمنحه في النهاية ما يُميّزه عن بقية المنحوتات».

كانتْ مأخوذة بما تقرأ. فلأول مرة تعرف أن السيد الرئيس فنّان في الأساس، لم يُثنه النضال عن الاستغراق في هوايته الجميلة. تمنّتْ لو اقتربتْ أكثر من عالم هذا الرجل الذي يُشاركها عشق الفنون، تمنّتْ لو كان الرجال المحيطون بها يشبهونه، عوض هذا العدد الكبير من الحمقى دون أيّ مواهب لافتة.

أعجبها أكثر أنّها لم تشعر للحظة أنّ وثائقها بحاجة إلى تعديل. شعرتْ أنّها أمام حكاية فاتنة، يُفسدها أي حرف يدخل عليها، أو يخرج منها، رغم كل التعديلات الموجودة فيها والمكتوبة بخطّ جميل. أراحها هذا الأمر كثيراً، فهو يسند قراراها ويساعدها للابتعاد عن العبث في الوثائق مجدداً.

«كيف تسير الأمور؟».

أخرجها سؤال المدير من استغراقها. أخبرته أنّها تجد نفسها منسجمة أكثر مع هذه الوثائق. شكرته لأنه أتاح لها معرفة هذه الجوانب العظيمة من حياة السيد الرئيس. رأَت الزهو في عينيه، قبل أن يتبدّد سريعاً مع سؤالها:

«مَن صاحب هذا الخطّ الجميل الذي تمتلئ به الوثائق؟».

كان الفضول يدفعها لهذا السؤال وقد أصبحتْ تعرف الآن أنّ الخطّ لا يعود إلى شخص تعرفه في الدائرة. فاجأها ردّ المدير وهو يدعوها للانشغال في الطباعة فقط دون الالتفات إلى

بقية الأمور. عادتْ مستكينة لوثائقها، وشرعتْ في طباعة وثيقة جديدة:

«اشتهر السيد الرئيس بوسامته الطاغية، فهو يحتفظ منذ شبابه بقوام فارع، وجسد عضليّ مصقول، ولياقة عالية لم تخذله حتى بعد انتهاء الحرب واستقراره في القصر. شاربه الكثّ كان مثار إعجاب الفتيات، وأسلوبه الساحر في الكلام، توّج كل ذلك ليجعله فارساً تحلم به كل مَن تلتقيه.

لكنّ السيد الرئيس لم ينجرّ وراء شهواته. كان رجلاً ملتزماً لا يُتيح لضعفه الإنساني أن يأخذه بعيداً عن هدفه، لم يكن يعاقر الخمر، ولا يستسلم لحبائل النساء المغوية، وهذا سبب آخر يجعل منه قائداً مختلفاً».

أخذ قلبها يدقّ بشدة، وهي تقرأ صفات الرجل الذي لطالما تمنَّت الالتقاء به. هذا التمنّع القاسي في شخصيته، أثار فيها انجذاباً لا يُقاوم. شعرتْ برغبة عارمة في الوصول إلى مثيله، في امتلاكه، وبذل فتنتها العصيّة تحت قدميه، لكن يا لحسرتها وعالمها خالٍ من هذا النوع النادر من الرجال.

عادتْ إلى مكتبها القديم منتشية.

لاحظ الجميع ذلك، وهو ما أثار حنق رئيس القسم الذي بادرها بالسؤال عن عملها الجديد بنبرة لا تخلو من غيرة. فهمتْ أنه ربط حالتها بصراعه مع المدير، فسارعتْ إلى تبديد ذلك:

«لم يترك أسلوبه الفظّ معي. لولا خوفي من سطوته، لرفضتُ الاستمرار في العمل معه».

أراحه جوابها قليلاً دون أنّ تغادره الريبة تماماً.

حكتْ له عن الوثائق التي عملتْ عليها، تعمّدَت الإسهاب في وصف صعوبة قراءة الكلمات المحاطة بكثير من الشطب والتعديل. أخبرته أنّها تُفضّل العمل في قسمه متقن التنظيم، على عناء فكّ طلاسم الوثائق الجديدة.

بدا أنّ ما قالته لاقى رضا رئيسها أكثر، فاقتنصتْ ذلك لتسأل مجدداً عن صاحب الخطّ الجميل المخوّل بالتعديل على وثائق تتحدث عن الرجل الأول في البلاد.

بدا الارتباك على وجه الرجل، لكنّه وككلّ مرة كان يُقدّم تلبية رغباتها على مخاوفه. وعدها أن يُخبرها بذلك، لكن بعيداً عن زملائها، وعرض عليها أن يلتقيها خارج الدائرة بعد انتهاء العمل. لم تفهم تحوّطه المبالغ فيه، كان يكفي أن ينطق باسم صاحب الخطّ الجميل وحسب، ما جعلها تُخمّن أنه يمتطي سؤالها ليبرِّر الالتقاء بها. فكّرتْ في الاعتذار، فلم يكن الأمر يستحق عناء قضاء وقت مملّ آخر رفقة رئيس قسمها، لكنها عدلتْ خوفاً من إثارة غضبه، وهي التي نجحتْ للتو في تبديد حنقه من عملها إلى جانب مدير الدائرة.

أبدتْ موافقتها وهي تتظاهر بالسعادة لعرضه الذي لا يُفوّت، لكنها لم ترد أن تُعكّر انتشاءها الآني، رجته أن يكون اللقاء في الغد حتى تقضي معه وقتاً كافياً، بينما كانت تهرب من ملامحه البلهاء بالاستغراق في صفات الرجل الوسيم الذي قضتْ برفقته أول النهار، وتأمل أن ينزرع مثله يوماً في طريقها.

كانت الصفات التي قرأتْ عنها لا تزال حاضرة ببهاء في ذهنها؛ القوام الفارع، الجسد المصقول، الشارب الكثّ، وقبل هذا كلّه، تمنّع مغوٍ. تمنّت أن تتعثر يوماً برجل يحمل هذه الصفات.

تخيّلته أمامها وقد تخلّى عن وقاره، نحّا تمنّعه، ليندلق بين يديها كعاشق مجنون. أغرتها فكرة أن تُغوي رجلاً متمنّعاً، أن تُذيب جليد كبريائه لتقطف لبّ روحه السامقة البعيدة.

شعرتْ بنفسها رفيقة نضاله، يُطوّقها بذراع بينما تنشغل ذراعه الأخرى بالقتال. بدا كمن يقاتل من أجلها، يبذل روحه كي تبقى بقربه إلى الأبد. يُصوّب بندقيته للبعيد، بينما تُصوّب هي نظراتها في عينيه، تغوص فيها، تتلاشى لتحفظ لعينيه بريقها الشهيّ.

لكن ألا يبدو غريباً أن تتعلّق بصفات تعود أصلاً إلى رجل يكبرها بكثير؟

لم تتوقف كثيراً عند هذا الخاطر، فها هي ترى الشباب من حولها، لا أحد منهم يملك شيئاً من ذلك، ما جعلها تأنف الاقتراب منهم.

هل لهذا علاقة بتوقها لسيرة والدها الذي لم تره؟

لا تعرف.

ما تعرفه الآن، أن ما قرأته عن السيد الرئيس يخطف انتباهها كله. هو في الحقيقة يفعل أكثر من ذلك، هو يكاد

يخطفها بكليّتها، ليصبح أمنية عزيزة، ترغب في امتلاكها وحسب. نعم امتلاكها وحسب.

غادرَت الدائرة وقد امتلأتْ بفرح يصهل داخلها ويذرع صدرها بزهو بالغ، وأمامها صورة رجلها الفاتن، الذي يُشبه كثيراً السيد الرئيس. ما إن دخلت البيت حتى خطر لها ترسيخها في إحدى زوايا غرفتها. أحضرتْ لوحة فارغة وشرعتْ في استحضار رجلها الذي استوحته عن سيرة السيد الرئيس. أعادها ذلك إلى الرسم الذي هجرته طويلاً، عادَت اللوحات في غرفتها إلى الحركة، ودّعتْ سكونها المقيت.

أخذتْ ترسم بنشوة، بدأتْ بالشارب الكثّ، ثم الابتسامة، والعينين. وما إن فرغت من ملامحه الدقيقة القريبة، حتى بدأتْ تُغني قوامه الفارغ. شغلَت الحيّز الأكبر من اللوحة بقوام رجلها، جعلته ممتداً إلى خارج اللوحة، فبدا قواماً أسطورياً لا نهاية له.

أعجبتها اللوحة، وقد تشبّعتْ بإحساسها الطريّ كله. صحيح أنها جاءتْ مطابقة لصورة السيد الرئيس، لكن لم يُربكها ذلك، فحين يأتي رجلها المنتظر، ستكتشف معه الفروقات، وإن كانتْ تتمنى ألا تجد فرقاً بين الاثنين.

وضعت اللوحة إلى جوار سريرها، فتسلَّل الدفء إليه، غمره الدفء بالأحرى، وقد حققتْ شيئاً من رغبتها في الامتلاك.

الشريط السادس

(2)

ما إن أشارتْ إلى سيارة أجرة حتى انزرع الطبيب أمامها.

سيطرتْ على ملامحها كي لا تفضح ارتباكها. مجرد رؤيته أمامها أعاد لها كلّ المشاعر السيئة التي رافقتْ زيارتها الأخيرة لعيادته. كانتْ حذرة جداً من القيام بأي تصرّف يزعجه، من أي تصرف يسعده حتّى. أرادتْ أن تكون في تلك اللحظة كائناً غير مرئي، شيئاً فاتراً، لا يترك أثراً على الإطلاق.

«لا أرغب في إزعاجك، سجّلتُ شريطاً جديداً، وخطر لي أنك ربما تودّين سماعه».

مجدداً قاومتْ أن يبدو على وجهها الارتياح. أخذَت الشريط دون أن تنطق بكلمة، لم تُرد له أن يعرف إن كانتْ مهتمة بالاستماع إلى الشريط أم لا. كان يُناسبها تماماً أن يُغادر كما أتى، دون أي أثر منها يأخذه معه. فكّرتْ في مدّ يدها ومصافحة كفّه المتعرّقة، لكنها عدلتْ تحت الخشية من كسر الحياد الذي اختارته.

صعدتْ إلى السيارة التي غادرتْ مسرعة. لم تلتفتْ،

تخيّلت عينيه تغرسان نظراتهما خلف رأسها تماماً. في الطريق فكّرتْ بترك الشريط في السيارة كما فعلتْ مع باقة الأزهار، لكنّ ثمة فضولاً صرف الفكرة عن ذهنها. وما إن دخلَت البيت وحيّت الجدّة المنهمكة في الاعتناء بحديقتها، حتى توجّهتْ إلى غرفتها، وبدأتْ في الاستماع إلى تسجيل الطبيب:

«بمجرد خروجها من عيادتكَ شرعتَ في تسجيل هذا الشريط.

لا تدري، خطر لكَ أنها ربما ترغبُ في معرفة تأريخ التسجيل، رغم يقينكَ أنه يصلح لكل وقت. لهذا لستَ قلقاً إن كانت ستستمعُ له على الفور أم ستؤجل ذلك لأيام أو ربما لأعوام.

لديكَ رغبة لم تستطع كبحها في إخبارها عنكم، أنتم معشر القبيحين. تعلمُ أنّه عالم مجهول بالنسبة لها، لذا فالتشويق مضمون. هل لاحظتْ؟ ليس واضحاً لديك ما إذا كنتَ تحقّق رغبتكَ أم تسعى لإرضاء رغباتها؟

لا يقين في القبح، على خلاف الجمال. الرجل الدميم يظلّ متشكّكاً على الدوام من هذه الحقيقة، حتى لو أحاطتْ به المرايا من كل جانب. هناك لحظة لا يكفّ ينتظرها لتنقض له ذلك. أكثركم تواضعاً يظنّ أنه أقلّ وسامة لا غير. يستطيع القول إن شخصاً آخر هو أجمل منه، لكنه لا يُقرّ للحظة أنه دميم بالمطلق. وهذا هو الخيط الذي يربطه بالحياة، ويجعله قادراً على مناكفتها.

أمر آخر يُساعدكم على هذه الحياة، فقد تواطأ العالم على خلق مقولات فارغة تتحدث عن الجمال الحقيقيّ. وأنّه يستقرّ بداخلكم، بينما تعلمون يقيناً أنّها مجرد مواساة تافهة، لكنكم تقابلون العالم بتواطؤ مماثل يُشعر الجميع بالارتياح.

لا تريدها أن تفهم من كلامكَ هذا أنكَ تستدرّ عطفها، ولهذا ستخبرها بشيء آخر؛ الرجل الدميم لا يستحق التعاطف، فهو بقدر ما يعيش في حالة إنكار مع ذاته، يستطيع بكلّ يُسر أن يرى دمامة غيره الكاملة.

حسناً.. هو يفعل أكثر من ذلك؛ ففي حين يصف كلّ حسناء تقوم بصدّه بالغبية المتعجرفة، هو لا يلتفت إلى أي دميمة، دون أن ينتبه إلى أنّه إنما كان يصف نفسه بكل دقة.

الآن تشعرُ بفضول لرؤية ملامحها وهي تستمعُ إلى هذا الكلام. تُرى هل تشعرُ بالصدمة لصراحتكَ الفجّة، أم توافقكَ الرأي، وهي تستمعُ إلى بديهيات تعرفها تماماً؟

أنت الآن تتخيّل ردّة فعلها الأولى. ستخبركَ ربما عن حاجتنا إلى الرضا بكل الأشياء التي لم نكن نملك خياراً فيها، أو يستهويها الاستمرار في حالة التواطؤ فتحلف أمامكَ أنكَ لستَ قبيحاً إلى هذا الحدّ، وقد توغل أكثر لتقول لكَ إنكَ وسيم، وإنّ إحساسكَ بالدمامة مردّه وهنٌ في ثقتكَ بنفسك.

لتقل لها أيضاً؛ إنها ستفاجئكَ بالفعل، لو خرج ردّها عن تلك الاحتمالات. هذا كل شيء».

شعرتْ بالغيظ وهي ترى الطبيب يتلاعبُ بمشاعرها، فهو يرفعها عالياً قبل أن يطرحها أرضاً بكل قوة. أحسّتْ أنه وبقدر ما يتحدث عن حاله يتحدث عنها، بقدر ما يجرح نفسه، تسيلُ دماؤها هي. لم تكن على يقين إن كان يتحدث عن دمامة شكله أم دمامة روحها. تعاظم غيظها وهي تعجز عن فكّ كلماته التافهة البسيطة. قلبَت الشريط، وشرعتْ في تسجيل ردّها له، قبل أن تخرج للقاء جدّتها، وقد أراحها ما سجّلته قليلاً.

كانت الجدّة قد انتهتْ من الحديقة، وشرعتْ في إعداد قهوتها الأخيرة قبل أن تُغادر لتوزيع ما أنجزته من الملابس على المرضى في ضواحي العاصمة. جلسَت الفتاة إلى جوارها وهي تراقب تحميص حبّات القهوة، وتملأ عينيها من ملامح جدّتها. هكذا تفعل الفتاة قبيل كل رحلة تقوم بها الجدّة، وكأنها تريد ملء الفراغ الذي ستخلّفه وراءها رغم أنها لم تكن تغيب كثيراً.

«كيف كان عملك اليوم؟».

لم تكن الفتاة تحكي لجدّتها طبيعة ما تقوم به تماماً، كانتْ تكتفي بإشارات عامة دون الغوص في التفاصيل. ولم تكن لتضعها في صورة عبثها بالوثائق ولا انجرافها وراء ما تحويه من حكايات. ولم تُشعرها أصلاً أن ثمة علاقة بين عملها واهتمامها المتأخر بالحكايات. لكنّها اليوم تتمنى لو تفعل ذلك، تتمنى لو تتحدث معها عن كل شيء يخصّ دائرة الأرشفة؛ عن مديرها ورئيس القسم، وعن زملائها، عن الوثائق البنيّة والحمراء، وعن الوثائق شديدة الأهمية، تلك التي تتحدث عن الرجل الوسيم

فارع الطول ذي الشارب الكثّ، عن السيد الرئيس، الذي دلّها على خيارها العاطفي بوضوح شديد، وصبغ عملها ببهجة وافرة.

لكنّ المفاجىء كان أنّ الجدّة هي مَن ابتدرَت الحديث عن السيد الرئيس، وهي تسأل الفتاة بمسحة امتعاض عن اللوحة الجديدة التي رأتها بجانب السرير.

كان غريباً أيضاً أنّ الفتاة لم تعد تملك الكلمات المناسبة للحديث عن لوحتها الأثيرة، عن القوام الفارع الممتد بلا نهاية، عن الرجل الذي اقتحم حياتها دون ممهِّدات. لم تستطع حتى أن تُخبرها أنه ليس السيد الرئيس، وإنما رجلها الذي يُشبهه، وسيأتي يوماً.

حلّ الصمت مكان كل ما كانتْ تشعر به أو تفكّر فيه. هنا أدركتْ أن أشياءنا الكبيرة لا تزال عصيّة على الكلمات التي نملك منها الكثير وننثرها بإسراف على كل ما حولنا.

عوض كل ذلك اختارَت الفتاة أن تسمع من الجدّة، فتمنح نفسها فرصة الهرب من ورطتها:

«ماذا بقي في ذاكرتكِ عن السيد الرئيس من أيام حرب الاستقلال؟ وهل هناك مَن هو في مثل صفاته؟».

بدا أنّ امتعاض الجدّة أصبح أكثر وضوحاً وفتاتها يسكنها كلّ هذا الفضول. ساد صمتٌ لبعض الوقت، قبل أن تُجيب بحكاية قصيرة:

«أيام النضال كنّا نُعاني من قلّة المؤونة. يحمل كلّ واحد منّا قربة ماء، وكسرات خبز يابسة، هي كلّ ما لديه، لكنّ أياماً أخرى كانتْ تجود علينا بالكثير من الطعام، حين نغشى قرية فنجد أهلها قد وضعوا كل مواشيهم تحت تصرف المقاومين. وقتها كان يعنّ لي مراقبة الخراف والأبقار وهي تُقاد إلى حيث تُذبح. كانت المواشي تنتفض كلمّا اقترب منها القصّاب، تتحرك بشكل جماعيّ، وتتبادل مواقعها، وكأن كل واحدة منها تحمي ظهر الأخرى، لكنّ الحقيقة كانتْ خلاف ذلك؛ فلم يكن كلّ هذا الصخب إلا لتنجو كل واحدة بنفسها فقط، وما إن ينتهي القصّاب من اختياره ويسوق الشاة أو البقرة التي اختارها بعيداً، حتى تهدأ البقية وتعود إلى حياتها وتنسى سريعاً ما حدث. الغريب أنّ هذا يحدث كل مرة، ليس مع المواشي وحسب، بل حتى مع بني البشر. أليس كذلك؟».

طربَت الفتاة للحكاية، وإن لم تهتدِ إلى العلاقة بينها وبين سؤالها. اكتفتْ بهزّ رأسها موافقة. أنهتْ فنجانها الأخير، وعادتْ إلى غرفتها، إلى اللوحة الأثيرة، وهناك انهمرَت الكلمات بعذوبة، حتى دون أن تنطق الفتاة بحرف واحد.

الشريط السابع

(1)

خرجتْ باكراً.

لم تقصد الدائرة، بل انطلقتْ من فورها إلى عيادة الطبيب. استعادَت الغيظ الذي ملأها لحظة سماعها لشريطه. كانتْ تنطوي على رغبة في نقل ذلك الغيظ إليه.

لم يبدُ عليه الارتباك وهو يراها تقتحم عيادته دون المرور على الممرضة. رأتْ في ملامحه ابتسامة ساخرة، فأدركتْ أنه بدأ يستمتع بلعبته، فقرّرَت المضي للنهاية:

«استمعتُ إلى كلماتكَ المثيرة، ولم أشأ أن أُفوّت الفرصة دون تسجيل شيء لك».

أخذ الشريط ووضعه جانباً، لكنها طالبته بالاستماع له أمامها. أرادتْ أن تتقدم عليه خطوة بأن ترى أثر كلماتها عليه. هنا لم يتمكّن من إخفاء ارتباكه وقد فاجأه تحفّزها. أخرج آلة التسجيل، وبدأ يستمع:

«يهمّني وأنت تستمتع إلى شريطي هذا أن تعلم أنني لم أكن

أفكّر في الإتيان باحتمال يفاجئك، ويخرج عن توقعاتك الثلاثة. كما لا أستطيع الإنكار أنك أثرت إعجابي وأنت تتقمص شخصيتي، وتتحدث بلساني. ربما لو كان حديثنا وجهاً لوجه، لوجدتني أختار أحد احتمالاتك دون وعي لأنجو به من حصارك المفاجئ، لكن والحال هذه اتركني أحتفظ بحقّي في أن أكون أنا، وأخبرك بردّي.

أنت رجل دميم. دميم للغاية. وهذا لا يحتاج إلى كثير عناء حتى يُدركه كل من حولك.

هل أبدو فظّة؟

سامحني، فأنا بذلك على الأقل أُسجّل غياباً عن حالة التواطؤ التي تتحدث عنها، وأظنّ أنّه من الجيد أن يخرج شخص في هذا العالم عن هذه الدائرة الرتيبة ليقول الحقيقة.

وبمناسبة الحديث عن الدوائر، هل تعلم أنّي أكره الدائرة، فميلانها المنتظم يصيبني بالسأم، صحيح أنّ انحناءاتها حميمية، لكننا نفقد الشعور بذلك مع الدورة الثانية، ولا سبيل لتغيير شعورنا مهما غيّرنا موقعنا من الدائرة. المربع لا يختلف عنها كثيراً، إن لم يكن أسوأ، رغم انسجامه وسلامه البادي على كل أطرافه. هناك المثلث، أبشع الأشكال، لكنه ممتلىء بالحياة بين الصعود والهبوط، بين الرأس والقاعدة، أو القاعدة والرأس، توتر لا ينتهي. هل لاحظتَ هنا أن المثلث هو الشكل الوحيد الذي يمنحك احتمالات متعددة؟

حسناً. . بدوري لا أريدك أن تنجرف وراء كلماتي فتظنّ أنني أعني أنّ البشاعة قد تكون أكثر غنى من الجمال الظاهر.

بقي أمر أخير؛ الجمال قيد اخترعه الرجل ليقيّد به المرأة، لكنه شَقِيَ به في النهاية. وقد يحدث هنا تبادل للأدوار بكل يسر.

تحياتي».

كان واضحاً أنّها تعمّدتْ ألا تُخبره بمقصدها تماماً، اكتفتْ فقط بنفي أحد الاحتمالات دون أن تورد البقية. وقد انعكس ذلك على ملامحه. أراد أن يسألها، أن يطلب توضيحاً أكثر، لكنّها وبمجرد أن نقلتْ إليه الغيظ شعرتْ بانتهاء مهمتها، بابتدائها بالأحرى، فغادرتْ والأسئلة تملأ صدر الطبيب بالغيظ، بينما يده المتعرّقة تحاول مسح قطرات ملأت جبينه.

في دائرة الأرشفة كان المدير في انتظارها بوثائق جديدة.

وكان انتظارها أكبر، فبدأتْ على الفور:

«صلابة السيد الرئيس وقوة شكيمته لم تكن لتلغي حسّه العالي. وكان معروفاً عنه استعداده البالغ لافتداء رفقائه بروحه. ولعلّ قصة «القائد الكبير» خير مثال على ذلك، وهي الجرح الذي ظلّ دون أن يندمل.

فقد كان القائد الكبير صديق السيد الرئيس القريب، نشآ سوياً، والتحقا بالنضال معاً، وقاتلا العدو جنباً إلى جنب.

ودائماً كان السيد الرئيس يخشى على رفيقه التهوّر، وكثيراً ما كان ينصحه بأخذ الحيطة والحذر، وعدم الانسياق وراء حماسه. وكثيراً ما ظنّ الجنود أنّ ثمة خلافاً بين الرجلين لفرط ما كان السيد الرئيس يؤنّب صديقه، لكنّ القائد الكبير لم يكن يُلقي بالاً لتلك النصائح، حتى حدثَت الفاجعة.

ففي ليلة بدتْ هادئة تلقّى القائد الكبير رسالة تُفيد بوجود مجموعة استطلاع صغيرة للعدو على قمة جبل عقامت التي لا تبعد كثيراً عن موقعه، فحمل سلاحه وذهب في اتجاههم دون أن يُخبر أحداً.

مرّ الوقت، فافتقد السيد الرئيس رفيقه، وحين سأل عنه قيل له إنه شوهد آخر مرة يتجه صوب التلّة، فشعر بسوء يُحيط برفيقه. حمل سلاحه من فوره وغادر وحيداً يتبع الوجهة دون أن يطلب رفقة جنوده. أعماه القلق على القائد الكبير، فتخلّى عن حرصه هو الآخر.

حين وصل التلّة لم يجد أثراً لصاحبه، لكنّ المكان كان يشي بحدوث شيء. واصل بحثه، أوغل يتبع حدسه، حتى صُدم بالقائد الكبير ملقى على مسافة مئة متر وهو مضرّج بدمائه. كان الوقت قد فات، فقد استشهد القائد الكبير برصاصات غدر لم يستطع السيد الرئيس إحصاءها.

أنشبَ الوجع أظافره في روح السيد الرئيس، واستطال به الغضب. طلب مدداً، وأسرع يتبع المجموعة الغادرة، حتى لحق بها عند الفجر على بعد كيلومترات من مكانه، فأوغل فيهم قتلاً

دون أن يشفي ذلك غليله، فقد ظلّ فقدان رفيقه كالوشم لا يستطيع منه فكاكاً.

لم ينس السيد الرئيس القائد الكبير، وها هو كما يعرف الجميع قد سمّى معسكر التدريب باسم رفيقه، وهو يحضر كل عام ذكرى استشهاده ليضع الزهور على قبره والعبرات تخنقه».

دمعتْ عينا الفتاة، وهي تتوجع لوجع السيد الرئيس. هكذا سيبدو حبيبها متوجّعاً أيضاً. بدتْ أنها أمام شخصين متطابقين.

أكبرتْ فيهما هذا الوفاء، وتمنّتْ لو تستطيع إعادة رفيقهما. تمنّتْ لو تمسح على رأسيهما كأم شفوق، أو تحتضنهما كغيمة حانية. لكنّها أيضاً كانتْ تشعر بالغيرة من **القائد الكبير**، من الحبّ الكبير الذي استأثر به دون غيره. كانت تظنّ أنّها أحقّ بالحب منه، أولى بأن تكون أقرب الناس إلى الرجلين، حبيبها والسيد الرئيس. ما أسوأ الغيرة من الأموات، فالمعركة معهم محسومة سلفاً، لصالحهم. شعرتْ **بالقائد الكبير** يُخرج لسانه لها، وقد حظِيَ بكلّ شيء في حياته وبعد مماته.

رغبتْ في تبديد هذه الصورة فأمسكتْ بوثيقة أخرى وشرعتْ في الكتابة:

«لم ينسَ السيد الرئيس فضل الأب الروحي عليه، فهو من قرّبه ومنحه فرصة التقدم في صفوف الجيش، لِما رأى فيه من بوادر نبوغ لافتة، لكنّ السيد الرئيس، وأمام هذا الاعتراف بالفضل لم يكن يُقدّمْ شيئاً على إرتريا، حتى لو كان ذلك يمسّ علاقته بأبيه الروحي.

أوغل الأب الروحي في أخطائه، أخذ يُبدد أموال الثورة التي جمعها من الدول العربية على مجموعات طائفية لا تمتّ للثورة بِصِلة. كثيراً ما حاول السيد الرئيس نصح معلّمه دون أن يخدش كبرياءه، لكن دون جدوى. مع الوقت أصبح الأب الروحي عبئاً على الثورة، وتجاوز الأمر تبديد الأموال إلى اتخاذه قرارات خاطئة، واصطفافه إلى جانب خصوم النضال. فلم يكن أمام السيد الرئيس إلا الركون إلى قراره التأريخي الذي سيُنقذ الثورة لاحقاً وإرتريا بأسرها. اقترح السيد الرئيس على قيادة التنظيم تجميد الأب الروحي، وهو ما قوبل بموافقة سريعة، فقد كانت قيادة التنظيم تأمل اتخاذ هذه الخطوة منذ زمن بعيد لولا خشيتها من غضب السيد الرئيس وهي تعلم حجم العلاقة بين الرجلين.

تمتْ تنحية الأب الروحي، ولم تلبث النتائج أن جاءتْ سريعة، فقد تخلّصت الثورة من أطراف كثيرة كانت تتلقى دعماً مباشراً من الرجل، فزال خطرها، وتفرّغ الثوار لقتال العدو قبل تحقيق النصر الكاسح».

كانتْ كل وثيقة تنتهي منها ترفع من قدر الرجلين لديها، حبيبها والسيد الرئيس. فباتتْ تُقبل على الوثائق بنهم:

«لم يكن شيء يشغل القادة والجنود على حدٍّ سواء في أوقات راحتهم سوى الحديث عن حُسن المناضلة التي انضمّتْ مؤخراً إلى الميدان. منذ الأيام الأولى لمَقْدَمها عرف الجميع

عائلتها ومسقط رأسها، ومستوى تعليمها، وقبل ذلك كله عدم ارتباطها بأي شخص حتى الآن.

كان جمالها من ذاك النوع الذي يأسر الأبصار منذ اللحظة الأولى، ولم يكن ممكناً تجاهل فتنتها حتى وهي في أقسى ظروف الحرب، شيء فيها كان يتجاوز الملبس والزينة، شيء ينبع من داخلها فلا تعود بحاجة إلى أي تجمّل آخر.

لم يجرؤ أي جنديّ على محاولة استمالتها، حين شاع تنافس القادة الكبار على كسب قلبها. وكان أشهر قانون في الميدان ألا يُنافس أصحاب الرتب الدنيا قادتهم على قلب فتاة. كانت قلوب الحسناوات محجوزة سلفاً لكبار الضباط.

وكانت الفتاة من جهتها متمنعة للغاية، فلم تمنح أي ضابط أو جنديّ فرصة الاقتراب منها لغير دواعي القتال، ما جعل قلوب القادة تتأجج رغبة فيها.

وحده السيد الرئيس كان خارج هذا التنافس المحموم، فلم يلتفتْ لها مطلقاً أو يمنحها اهتماماً يفوق ما يُعطيه لأصغر جنديّ لديه. هذا ربما ما جعلها تلحظ تمنّعه الذي يفوق ما لديها، فحاولتْ مراراً أن تعترض طريقه دون أن تتحدث إليه، كانتْ ترغب في منحه فرصة ليُبادر، وعلّها كانت تنوي صدّه بعد ذلك لتكسر كبرياءه الذي يستفزّها. غير أن السيد الرئيس بقي على حاله، لم ينتبه لها ربما، حتّى اضطرّتْ مرغمة في إحدى المرات إلى أن تُبادر بالحديث إليه، لكنّ حديثه معها كان فاتراً دون أي اعتبار لفتنتها. كرّرتْ محاولاتها دون جدوى، اشتكتْ له مرة من

مضايقة أحد الضباط كي تُثير غيرته، غير أنه تعامل مع الأمر بحزم ووبّخ رفيقه، ثم غادر دون أن يخصّها بكلام.

أجّج سلوكه الحب في قلبها، شعرتْ أنها إزاء رجل مختلف، وسيم ومترفّع، رأتْ فيه صفات القادة الكبار، فعرفتْ أن الطريق إلى قلبه يمرّ ولا شكّ عبر ساحات القتال. اجتهدتْ في تدريباتها، ثم طلبتْ أن تكون دائماً في صفوف القتال الأولى، فأبلتْ حسناً، وهو ما لفت لها أخيراً أنظار السيد الرئيس الذي جاء من تلقاء نفسه في إحدى المرات ليُشيد بشجاعتها، فعرفتْ أن ثغرة قد فُتحتْ في جدار قلبه الصلد.

عادتْ من إحدى المعارك وقد أصيبتْ إصابة خفيفة، فهرع السيد الرئيس إلى خيمتها، وأشرف بنفسه على العناية بها، فكان يزورها كل مساء، يطمئن عليها، ويتحدثان لساعات طويلة، حتى أغرم بها، وعرض عليها الزواج.

طارتْ فرحاً وقد تحقق مرادها، وفازتْ أخيراً بالقائد الوسيم دون كل الفتيات. وقد أخلص السيد الرئيس لزوجته الحبيبة طوال سنوات زواجهما، حتى وفاتها بعد مرض لم يُمهلها طويلاً، ولم يتزوج بعدها وظلّ وفياً لذكراها».

اشتعل قلب الفتاة بالغيرة.

هذه المرة بدَت الأمور أكثر وضوحاً؛ هي تغار على السيد الرئيس وحده. بدأ الآخر يتلاشى، ينمحي، يزول ويترك مكانه كاملاً للسيد الرئيس. تحرقها الغيرة على شخص واحد، تريده

هو. لا تريد شبيهه، ولا تتمنى أن تجد شبيهاً له. تريده هكذا متفرداً بكل هذه الوسامة والتمنّع.

لكنه يقتلها الآن، وهي تراه يتعلّق بفتاة غيرها، لم يشفع للمرأة موتها، ولم يُخفف من سعار الغيرة. كانتْ تراها أمامها بكل فتنتها القاتلة. تمنّتْ لو لم تقرأ هذه الوثيقة الجارحة، تمنّت لو تستطيع تمزيقها، إخفاءها من الوجود.. تشويهها.

توقفت عند الكلمة الأخيرة..

لا. لا..

هي لا تريد العودة إلى العبث بالوثائق، لا تريد ممارسة هذه اللعبة الخطيرة مرة أخرى. لا ترغب في السقوط مرة أخرى في فخّ الكلمات المخادعة الجارحة، وقد أوغلتْ فيها طعناً وتمزيقاً. تراءى لها المِغزل العاجيّ مرة أخرى، كان حاضراً بنهايته الحادّة، جاهزاً للانغراس في فرائسه الصوفيّة.

لكنّ غيرتها جرح أكبر، جرح يخنقها، يُعمي بصرها، بحيث لا تتجلّى أمامها إلا العتمة التي خلّفتها وثيقة المرأة الحسناء، حبيبة حبيبها.

استبدّت بها الحيرة، قبل أن ينتصر حقدها على الفتاة أخيراً. فشرعتْ في تعديل الوثيقة، تشويهها بالأحرى:

«لم يكن شيء يشغل القادة والجنود على حد سواء أوقات راحتهم سوى الحديث عن قبح المناضلة التي انضمّتْ مؤخراً إلى الميدان. منذ الأيام الأولى لمقدمها سعى الجميع لتجنّبها،

خاصة حين علموا أنّها لم ترتبط بشخص حتى الآن، وأنها تسعى بكل جهدها لتجد شخصاً يقبل بالتورط في علاقة معها. قلّة كانوا من الجرأة بحيث أخذوا يتندّرون على قبحها علانية، دون أن يُؤثر ذلك فيها، بل على العكس زادها إصراراً للإيقاع بزوج قبل فوات الأوان.

كان قُبحها من ذلك النوع الذي لا تُطيق الأعين التحديق فيه طويلاً، وكانتْ كثيرة التجمّل والاعتناء بنفسها، دون أن يُغيّر ذلك من قبحها الذي كان ينبع من أعمق أعماقها، فلم يكن ممكناً إزالته مهما بُذل في سبيل ذلك.

حاولتْ كثيراً مع الضباط، فلمّا لم تجد أثراً، بدأت المحاولة مع الجنود، حاولتْ إغواء الشباب، ثم جرّبتْ مع كبار السنّ، لكنّ قبحها كان كالحائط يحجب عنها أي فرصة للحصول على رجل.

وكانتْ إضافة إلى قبحها جبانة خوّارة، فكانتْ تتجنب المعارك الطاحنة، تتعذّر مرة بالمرض، ومرة بانشغالها بالطبخ لتجلس في مؤخرة الجيش بين المؤن والأطباق، بينما كانت نظيراتها في مقدمة الصفوف. لكنّها لم تكن تُفوّتُ فرصة أن تُمارس الكذب وتدّعي الشجاعة، حتى وصل بها الأمر إلى اختلاق قصة مشاركتها في معركة كبيرة عادتْ منها بإصابة جسيمة، لم تكن في حقيقة الأمر إلا جرحاً بسيطاً أحاطته بكثير من الضماد، حتى تمرّ الكذبة على القادة والجنود، فتجد مبرراً لتجاوز قبحها إلى قلوبهم الموصدة أمامها».

شعرتْ بكثير من الارتياح ما إن فرغتْ من إدخال تعديلاتها. شعرتْ بصواب قرارها حين برد قلبها الذي اهتدى إلى وجهته أخيراً، لكنه كان لا يزال ينبض بقوة، وكأنها خارجة للتو من معركة حياتها. هي كذلك، فلا يجدر بامرأة أخرى أن تحوز على قلب حبيبها، حتى لو كان ذلك على الورق.

انتبهتْ متأخراً لحجم مجازفتها، فرئيسها وإن كان لا يستخدم كمبيوتره، ويواجه صعوبة في قراءة الوثائق، فإنه قد يلجأ إلى مساعدته لفضح واكتشاف ما قامت به. وهي في هذه الحالة لن تنجو بفعلتها، ولن تجد تبريراً لكل ما كتبته، وقد يُفتح هذا الباب أمام معرفة كل العبث الذي قامت به مع وثائقها البُنيّة.

داخَلَها الخوف، لكنّ الرضى الذي خلّفه تعديلها الأخير كان حاضراً، فشعرت أن مجرد إزاحة خصومها من الطريق إلى قلب رجلها يستحق كل العناء والمجازفة.

استقرّتْ على هذا الرأي، وهي تدعو الله أن تمرّ تعديلاتها دون أن ينتبه لها أحد.

لم يُعطها المدير وثائق إضافية فغادرتْ مرتبكة إلى مكتبها القديم حيث كان في انتظارها رئيس القسم وهو يُذكّرها بلقائهما. لم تنسَ، وإن كان مزاجها لا يزال تحت وقع ما قامتْ به، لكنها لا تملك أن ترفض.

خلف مكتبها جلستْ تُنجز بعض الوثائق البُنيّة دون أن تنشغل بها.

طرأ لها الطبيب، ملامحه المحتقنة بالغيظ التي تركتها خلفها. لا تعرف لماذا يخطر ببالها الآن؟ أهو عالم الرجال الذي لا يكفّ عن خلق المتاعب في كل الأحوال؟

شعرتْ بتأنيب الضمير، ربما كان ينبغي أن تكون أقلّ غلظة معه، ألا تنجرّ وراء حنقها من كلماته.

هل تُشفق عليه الآن؟

لا تدري!

هي لا تكره هذا الرجل، ولا تُحبّه بكل تأكيد، لكنّ شيئاً فيه يحفظ المسافة بينهما، فلا تملك أن تباعدها أو تجسرها. تُريده أن يبقى، ليس قريباً فيقتحم حياتها دون رغبة منها، ولا بعيداً بحيث تفتقد لشيء لا تعرف ماهيته إلى الآن.

المسافة كائن مراوغ، يرتدي أقنعة كثيرة. نلعنه حين ينغرس بيننا وبين ما نريد، لكننا نشتهي قدومه ليُريحنا من جرأة القرب ورهقه، وليمنح قلوبنا وعقولنا فرصة أن تختار دون أن يحكمها عطف أو خوف.

بدا الطبيب وكأنه من أولئك الناس الذين نحتاج بقاءهم، لكن على حوافّ حياتنا. أن نكتفي بمعرفة وجودهم في مكان ما، دون رغبة في أن يجمعنا المكان نفسه. شعور محيّر، ولعله أكثر حيرة للطبيب نفسه.

تمنّتْ لو تستطيع شرح مشاعرها له، أن تُريحه، وتُريح نفسها بالتالي، لكنّ الأمر كان عصيّاً على الشرح. هي تُدرك أنّ

من السهل عليه أن يلجأ إلى كلمات من قبيل مغرورة، متقلبة المزاج، أو حتى مضطربة، لفهم ما يحدث. ولم تكن للأسف، تملك طريقة لتغيير فهمه للأمر.

حان وقت المغادرة، فطلبتْ من رئيس القسم أن تسبقه إلى مدخل البناية، فلا يجدر بالمدير رؤيتهما يخرجان معاً. وافق رئيسها على مضض، وكأنه كان يرغب في أن تشهد الدائرة بأسرها خروجهما معاً.

على المدخل كان الطبيب في انتظارها، وكأن الخاطر قد استدعاه بالفعل، أو أنّ قدومه استبق زرع الخاطر في بالها.

لمحتْ في يده آلة تسجيل، وابتسامة تحدٍّ تعلو محيّاه، فأدركتْ إصراره على مواصلة اللعبة. لم تغضب، خطر لها أن تعتذر له، أن تطلب منه وقف هذه اللعبة المرهقة لكليهما. بقدر إصراره، كانت ترغب في احتواء غضبه، كأمّ لا تلتفتُ كثيراً إلى حماقات صغيرها.

لم تكد تنطق حتى قدم رئيسها.

بدا الارتباك على الطبيب وهو يرى نظرات رئيس القسم المتسائلة. ساد الصمت لبعض الوقت، وكلا الرجلين يشعران باقتحام الآخر لمكانه. وكان مطلوباً منها أن تحسم الموقف لصالح أحدهما. شعرتْ بحجم المأزق، فهي لا تُريد مضاعفة غضب الطبيب، ولم يكن بوسعها أن تتنصل من موعدها مع رئيسها، ولا تُريد له أيضاً أن يشعر أنّ من يُنافسه عليها ليس المدير وحده.

في النهاية اضطرّتْ مرغمة لاختيار رئيسها:

«هل هناك شيء؟».

ارتبك الطبيب أكثر، وهو يسمع سؤالها الصارم. وبيدٍ مرتجفة أخرج شريطاً من داخل آلة التسجيل وهو يُخبرها أنّها قد تكون نسيته في عيادته أثناء زيارتها الأخيرة.

كان جليّاً أنّه خطط لأن يسمعا التسجيل سوياً، أراد أن يواجهها برأيه، ويلحظ ردّ فعلها الفوريّ. فكّر في الانتقام بطريقتها نفسها. ها هي رغبتها في التهدئة تفشل، والطبيب يأخذ الأمور بعيداً.

تمنّتْ لو تُحقق رغبته، لو تُشعره بالانتصار، فهي الطريقة الوحيدة لإرضائه، لكنّ الظروف كانتْ معاكسة.

أخذَت الشريط وشكرته قبل أن تُغادر رفقة رئيس القسم. هذه المرة التفتتْ خلفها، كان لا يزال في مكانه، وكأنها لا تزال قبالته.

اختارتْ مقهى قريباً من دائرة الأرشفة.

انتبهتْ متأخراً إلى أنّه المقهى نفسه الذي جلستْ فيه رفقة الطبيب. أشعرها ذلك بالحرج. أحسّتْ أنّها تُمعن في طعن الطبيب، في التمثيل به، دون أن يكون هذا مقصدها. تمنّتْ ألا يراها فقط في هذا المكان صحبة رجل آخر. لم تجدْ تفسيراً لشعورها، ربما كانت لا تزال تحت تأثير الإشفاق على الرجل،

ربما لا تُريد للمسافة بينهما أن تزداد اتساعاً. هل كانتْ هي من يتحكَّم بهذه المسافة على الدوام؟ لم تجد جواباً!

عادتْ إلى رئيس القسم، وقد أحسّ بشرودها. كادتْ تضحك بعلوّ صوتها، فها هي وعوض أن يُراعي الجميع مشاعرها، أن ينتبهوا لما تُريد وما لا تُريد، أصبحتْ هي تحت سطوة هذا الإحساس المرهق.

«هناك أمر أُريد الحديث فيه قبل الإجابة عن سؤالك حول صاحب الخطّ الجميل».

دقّ قلب الفتاة وجلاً وهي ترى ابتسامة رئيسها المختلطة بخجل مصطنع بدا سخيفاً. شعرتْ أنّها إزاء قنبلة ستنفجر في وجهها دون أن تجد وسيلة لتفاديها. ها هو الرجل يصل إلى طلبه الذي يُقابل كل خدماته لها، ها هو سيطلب مكافأته المستحقة والمتأخرة، بكل صفاقة.

«تفضّل يا والدي، فكل حديث معك هو حديث ممتع، فأنا أشعر أنّ الله عوضني بك عن والدي، ولا تعلم حجم تقديري لك واعتزازي بمعرفتك، دعني أخبرك أنّي اتفقتُ مع خطيبي أن تقوم أنت بمقام والدي في حفل زفافي».

بُهت رئيس القسم وهو يبتلع كلمات الفتاة الصادمة، بينما كان الارتياح يتسلّل إليها وهي ترى خيبة الأمل تحتل ملامح الرجل، وتُطفئ تحفّزه، لكنها تزيد من سرعة عينه الرامشة.

«لا شيء، هذا ما كنتُ أرغب في قوله، وجميل أنّك سبقتني بقوله.. يا ابنتي».

قاومتْ كي لا تنفجر ضحكتها، وهي تسمع كلمته الأخيرة المتردِّدة، وترى حيلتها الناجعة تُطيح بالرجل المسكين، وتُبعثر أفكاره.

«والآن أخبرني بقصة صاحب الخطّ الجميل».

تلعثم الرجل قليلاً وهو لم يُفق تماماً من صدمته.

«ليس مسموحاً بالشطب أو التعديل في وثائق دائرة الأرشفة إلّا لمجموعة محدودة من الوثائق معظمها هي التي تعملين عليها هذه الأيام، إضافة إلى بعض الوثائق الحمراء. وتجري هذه العملية في حدود ضيقة وضمن سرية كبيرة، لذا ما سأخبرك به الآن يجب أن يبقى بيننا كي لا يطولني أو يطولك الأذى».

بدا أن الرجل ينتظر وعداً بعدم إفشاء ما سيقوله. منحته الوعد سريعاً وقد زاد تحفّزها لما ستسمعه.

«هناك تصنيف يتجاوز ما رأيتِه من وثائق بنيّة أو صفراء وحمراء، وهذا أمر يسبق اطّلاعنا على الوثائق، وهي مهمة المدير ومساعدته فقط، وذلك حين تجلب المساعِدَة كل الوثائق من مستودع الدائرة، وتفرزها على مرأى من المدير، بحيث تأتي إلينا الوثائق العامة، وتبقى لدى المدير الوثائق التي تخصّ السيد الرئيس».

شعرتْ برعدة خفيفة وهي تسمع اسم حبيبها. صمت رئيس القسم قليلاً وهو يبتلع ريقه، وكأنه يمنح الاسم ما يستحقه من مهابة وتوقير، قبل أن يواصل:

«لا يتم الشروع في إدخال الوثائق التي تخصّ السيد الرئيس قبل أن يطّلع عليها شخصياً، فهي تذهب إليه ابتداء، فيُدخل عليها تعديلاته التي يراها، يشطب ما يُريد، ويضيف ما يُريد، وهذا أمر مفهوم كما تعلمين، فليس هناك مَن هو أدرى بما حدث بالفعل من السيد الرئيس، مع الاحترام بالطبع لكل المناضلين الذي سجّلوا تلك اليوميات، فقد يكون فاتهم شيئاً أو أساءوا فهم أمر ما، وهنا تأتي مهمة السيد الرئيس الذي يبذل من وقته مشكوراً ليُصوّب عملنا، بما يخدم مصلحة الوطن العليا، فليس أكثر منه حرصاً على ذلك.. هذا الأمر يحدث بدرجة أقل مع بعض الوثائق الحمراء التي تكتسب أهمية خاصة.

هل عرفتِ الآن من هو صاحب الخطّ الجميل؟».

الشريط السابع

(2)

تركتْ رئيس القسم وهي مشوّشة.

ما الذي يجعل السيد الرئيس مهتمّاً بتعديل الوثائق التي تخصّه؟ ما الذي يُريد إخفاءه، وما قيمة الأمور التي أضافها؟ ما هي المسافة بين ما كان مكتوباً بالأساس، وما أصبحتْ عليه الوثائق بعد تعديلها؟

بحثتْ عن الأجوبة عند رئيسها، لكنّها لم تجد غير تكرار للكلمات ذاتها؛ مصلحة الوطن العليا. للحظة خطر لها أنّها لم تكن الوحيدة التي تعبث بالوثائق، لكنّها طردتْ ذلك الخاطر سريعاً، فلا يجدر بالسيد الرئيس، بحبيبها، أن يطرد سأمه باللهو بوثائق الدولة.

فكّرتْ في العودة إلى منزلها، لكنّها تذكّرتْ مهمة يتوجب إنجازها قبل ذلك.

لم يفاجأ الطبيبُ كثيراً بمقدمها، وكأنه كان في انتظارها، خاصة حين رأى الشريط في يدها.

أخرج آلة التسجيل وقد بدا متحفّزاً لسماع ردة فعلها. كان يظنّ أنّها جهّزتْ تسجيلاً، قبل أن تباغته:

«لم أستمع إلى حديثك بعد، أردتُ تحقيق رغبتك في الاستماع إلى الشريط معاً، هل تسمح؟».

وضع الشريط في آلة التسجيل بشيء من التردد، وكأن رغبته في مواجهتها خفتتْ قليلاً، وكأن استعدادها الواثق للمواجهة أضعف استعداده، ومنحها التفوق في معركتهما. ضغط على زر التشغيل:

«تجدُ نفسكَ مضطراً للاعتراف لها أنها فاجأتكَ، وجاءتْ باحتمال رابع لم تتوقعه، لكنه أعجبكَ على أية حال. أعجبكَ أكثر أن حديثكَ دفعها لقول كل ما لديها بكل صراحة، ودون أصباغ أو تواطؤ.

حسناً فلنذهب بعيداً في هذه الصراحة.

هي جميلة، وجميلة جداً، وربما لم يُتح لكَ معرفة مَن هي في فتنتها الطاغية، لكنّ جمالها مرهق ومتعب وزائد عن الحاجة. جمالها عبء في حضورها وفي الغياب.

هل تُصدّقكَ لو قلتَ لها إنكَ بتَّ تُشفق عليها وهي تتنقل بهذه الحمولة الثقيلة في كل مكان؟ تُشفق عليها، لأن الجمال يحجب عنها الرؤية والإحساس والطريق.

الجمال الطاغي غلالة تحجب طعم الأشياء؛ تجزم أنها لا ترى الألوان على طبيعتها دون عون من الآخرين، تجزم أنها

تُشبه الأعمى، لا يتحرك خطوة دون مساعدة شخص أو عصا تدلّه على الطريق.

هل تُبالغ؟

ربما، لكنّ الأكيد أن الأمور أكثر وضوحاً أمام الدميم، فلا هو مثقل بأعباء ما يملك، ولا الآخرون مضطرون للمداراة والتجمّل أمامه.

لا تقول هذا الكلام لتثبت أنكَ أفضل حالاً منها، فليس هذا ما يهمك، بقدر رغبتكَ في مساعدتها. أنتَ تلعب هنا دور العصا التي يستند إليها الأعمى، دون أن يمنحها كثير امتنان، لكنّها في النهاية تُقدّم شيئاً مفيداً دون انتظار ذلك الامتنان».

عاد إليها الغيظ، لكنّها كانتْ وفيّة لقرارها بتهدئة الحرب، بعقد هدنة مؤقتة على الأقل. فالرجل ينطلق من جرحه، وليس هناك أكثر شراسة من رجل تُحرّكه جراحه. حتى لثغته القبيحة لم تعد كذلك. بدا أنها أصبحتْ تتقبّلها أكثر من السابق:

«معكَ حق.. أنا كل ذلك وأكثر، وأنا هنا على خلاف ما تعتقد، أشعر بالامتنان للعصا التي تدّلني على الطريق، أشعر بالامتنان لك، فأنت مرآة صادقة لم أصادفها من قبل».

هدأ تحفّز الرجل دون أن يُغادره وقع كلامها المفاجئ. بدا أنّه انتصر في معركته معها، لكنه انتصار دون طعم، انتصار فاتر. فالانتصار هو ما نُحقّقه، لا ما يمنحنا إياه الخصوم بطيب خاطر، حينها يصبح الانتصار بطعم الهزيمة المُرّة.

«حسناً. . سأكون في انتظار ردّكِ».

«لن يكون هناك ردّ. سأكتفي بما سمعته منكَ، ولنُنهِ هذا التراشق عند هذا الحدّ. هل تُمانع؟».

أوغلَت الفتاة في الاستسلام، في سحقه بنعومة، في اختيار طريقة إنهاء المعركة، ومن اختار النهاية لا يُمكن إلا أن يكون منتصراً. فكّر في رفض عرضها، في إخبارها أنه يرغب في مواصلة القتال. أراد أن يقول إنه لا يزال يشعر بالظمأ، ولا يجدر به التوقف قبل الارتواء، لكنّه كان مهزوماً، ولا يحقّ للمهزومين فرض شروطهم. أذعن وقد تنامى غيظه، واكتفى بذلك.

قبل أن تُغادر الفتاة مدّتْ له يدها وصافحته. ابتلّتْ يدها بعرقه، لكنها لم تشعر بالتقزز، كان قرارها بإنهاء المعركة أكثر صرامة.

غادرتْ وهي تشعر ببعض الارتياح، فها هي لأول مرة تتصرف على غير رغبتها، دون أن تنصاع لغريزتها الحادّة في إخضاع الآخرين. جرّبَت الخضوع هذه المرة، الاستسلام، ولم يكن ذلك سيئاً كل السوء.

غادرتْ مكتب الطبيب، وكلاهما اختار الهزيمة، لكن بطعم مختلف!

الشريط الثامن

(1)

على غير العادة..

لم يكن تركيزها هذا اليوم على ما تقوله الوثائق، بل سعتْ لمعرفة ما لا تقوله.

كانتْ تبحث عن الكلمات المعدّلة وتلك المضافة، كانتْ تتأمل الخطّ الجميل لترى إلى أيّ حدّ كانتْ تدخلاته كبيرة. غاب عنها السيد الرئيس حبيباً، وحضر كصاحب الخطّ الجميل وحسب. كرهتْ هذا الحضور، لكنّها لم تستطع طرد هواجسه عن بالها.

خطر لها أن تسأل المدير، غير أنّها شعرتْ أنّ ذلك ينطوي على مجازفة كبيرة، فأكملتْ إدخال الوثائق، وعادتْ إلى مكتبها القديم.

لاحظ رئيس القسم شرودها، فاقترب منها هامساً وكأنه قرأ ما يشغلها:

«هل لا يزال صاحب الخطّ الجميل يشغلك؟».

لمعتْ عيناها وقد شجّعها سؤاله على التقدم صوب هدفها مباشرة:

«كيف أستطيع قراءة الوثائق قبل أن تذهب إليه؟».

ارتبك رئيس القسم وتلَفّتْ حوله يرقب وقع جملتها في ملامح الموظفين، رغم أنه بالكاد سمعها لفرط ما كانت الفتاة تهمس.

عاد إلى مكتبه دون أن يجيبها.

لحقتْ به وقد زاد تصميمها على محاصرته. أخبرها أنها تطلب أمراً صعباً وذا عواقب وخيمة، غير أنها أكدتْ تحمّلها وحدها لكل ما ينتج من ذلك. شرد رئيس القسم قليلاً يزن حديثها، قبل أن يعود إلى الهمس مجدداً، وعينه ترمش بقلق:

«هناك فريق في مخزن الدائرة يعمل على فرز الوثائق بشكل أوليّ، ومن ثم يُسلّمها لمساعدة المدير التي بدورها تفصل وثائق صاحب الخطّ الجميل، وتُرسلها إلى مكتبه، بينما تصلنا بقية الوثائق كما رأيتِ. إذن لرؤية الوثائق قبل تعديلها عليكِ الاطّلاع عليها قبل وصولها إلى مساعِدة المدير، أو قبل إطلاع صاحب الخطّ الجميل عليها».

كان رئيس القسم يواصل تلفّته وهو يتحدث إليها، ولا يذكر اسم السيد الرئيس رغم أن الفتاة وحدها من كانتْ تستمع إليه. شعرتْ باستحالة مهمتها قبل أن يُضيف رئيسها جملة رأتْ فيها بعض الأمل:

«يحتفظ المدير بنسخة عن الوثائق التي تخصّ صاحب الخطّ الجميل قبل تعديلها لبعض الوقت، مخافة أن تضيع قبل أن تصل إلى وجهتها، لكنه يقوم بإتلافها بمجرد حدوث ذلك، وقدوم النسخ المعدّلة».

إذن فهذه ضالتها، ستبذل جهدها للوصول إلى مخبأ كنزها، إلى ما يُخبئه السيد الرئيس. لم تكن تعرف كيف ستفعل ذلك، لكنّها تعرف أنّ رغبتها الجامحة ستفتح لها الأبواب.

حين غادرَت الدائرة، كان الطبيب ينتظرها على المدخل.

لم يكن يحمل شريطاً، وهو ما أراحها قليلاً، لكنّ ملامحه هي الأخرى لم تحمل شيئاً، فلم تدرِ إن كان لا يزال يرغب في مواصلة معركته أم أن جولة الصباح كانت نهاية الحرب. مدّ يده وصافحها. لم تكن يده متعرّقة هذه المرة.

«هل تملكين بعض الوقت؟».

هل كان يسألها أم يتوسّل إليها؟ أيضاً لا تدري!

ذهبا إلى المقهى ذاته، إلى «بار رويال»، كان هذا خياره. ترك المقعد المقابل لها، واختار أن يجلس إلى جوارها. أربكها تصرّفه المشوب بالغرابة. انتظرتْ أن يتحدث لكنه كان يُحدّق في البعيد دون اعتبار لوجودها. ضايقها الأمر قليلاً، غير أنّ فضولها كان أقوى، فاختارَت الانتظار، إلى أن نطق أخيراً دون أن ينظر إليها. لم يكن يتحدث إليها، كان كمن يخاطب نفسه:

«جئتَ لتعلن لها هزيمتك.

لا تعرف إن كان هذا يعني انتصارها، لكنّ الأكيد أنه استسلام غير مشروط.

كانت رغبتكَ في النصر كبيرة، لا لتهزمها، بل لتفعل شيئاً مختلفاً، لتسجّل ربما أول انتصار للقبح على الجمال، لكنّك في غمرة رغبتكَ تلك، نسيتَ أن بذور الهزيمة تستوطن القبح، فتأتي الخسارة من الداخل، دون حاجة إلى الخصم، ودون خوض أي معركة حتّى.

هُزمتَ لأن المشوار كان طويلاً، لأنك بدأتَ من نقطة متأخرة جداً، ولأنك حين بلغتَ خط النهاية أدركتَ أنه لم يكن إلا أول الطريق، وأنتَ عاجز عن البدء مرتين، والقتال مرتين، والموت مرتين.

هُزمتَ لأنكَ بدأتَ مهزوماً، وكان مطلوباً منكَ أن تتجاوز هزيمتكَ بدءاً قبل أن تُفكّر في النصر، ويا لها من مشقّة تلك التي تستوجب إزالتها مشقة أكبر.

في مهنتكَ كثيراً ما تستحضر عنق الزجاجة حين تتعامل مع حالة حرجة.

هل سبق لها يوماً تأمل عنق الزجاجة؟

إنه أضيق ما فيها، لكنه محاط بالبراح من جانبيه؛ قعره، والفضاء الذي يُحيط بالزجاجة، والمريض الذي لا تستطيع العبور به من عنق الزجاجة إلى الشفاء التام، ترضى بإعادته إلى قعرها ليتعايش مع مرضه براحة مؤقتة، هي أهون كثيراً من الضيق

الذي يلقاه في حالته الحرجة، وهذا ربما كان خياركَ في النهاية؛ قعر الزجاجة على الانعتاق منها تماماً.

لا تُريدها أن تشعر بالاستياء؛ فلا علاقة لقرارك بها، أو على الأقل أنتَ لا تشعر تجاهها بأي ضغينة. خطر لكَ أننا لا نعرف عادة أننا سيئون، وإذا فعلنا، لا نُدرك إلى أي حدّ نحن كذلك، ذلك لأننا نعرف تماماً كل مبررات أفعالنا. يُريحنا ذلك ولا شك، لكننا لا نمنح الآخرين هذه الفرصة، لا نُفكر في مبرراتهم، نتصرف وفق أفعالهم المجرّدة. وهذا ما حاولتَ أنتَ تجنبه.

تجدُ كثيراً من العذر لقسوتها، تتعاطف مع معركتها، فهي تدافعُ عمّا تملكه، بينما كنتَ تُقاتل لسلبها إياه، وشتّان بين الحربين. حربها مقدّسة، وحربكَ لا مشروعية لها. هذا هو الأمر بكل بساطة».

كان لا يزال يُحدّقُ في الفراغ، بعد أن فرغ من هذيانه.

أصبحتْ مثله.

كانا ينظران إلى نقطة بعيدة، نقطة غائمة، مشتّتة الملامح، لكنّها مع الوقت بدتْ شديدة الوضوح، شديدة القرب.

أشفقتْ عليه، حتى وهو يغرس راية استسلامه في صدرها ويوجعها. فكّرتْ كثيراً في أن تُقاطعه، أن تمنع اندلاق اعتزازه بنفسه، غير أن جريان رغبته في الاستسلام كان أقوى منها. كرهتْ هزيمة خصمها، كرهتْ هذا النصر الجائم على أشلاء

الرجل، تمنّتْ لو واصل حربه المستعرة ضدها، لو أبقى على رغباته وأمنياته التي جرفتها مرارة الهزيمة.

لكن ماذا لو كان الأمر خلاف ذلك؟

ها هي يُخيّل إليها أن اللعبة لم تنتهِ بعد.

هل تُراه يسلك مسلكها، يمنحها النصر بارداً، يتشبثُ بالهزيمة، يختارها بملء إرادته، يُموّهُ الخط الفاصل بين النصر والهزيمة، فيُفقد الاثنين معناهما.

هل استسلم بالفعل، أم أنه اختار ساحة أخرى للحرب وحسب؟ ساحة يدخلها المتخاصمون عُزّلاً دون عتادهم، فلا يبقى مجال للعودة بالغنائم.

بدا الأمر كموجتين متقابلتين، إما أن تسحق إحداهما الأخرى، لكن بعد أن يذهب كثير من اندفاعها، أو تنساب لها، وتذوب فيها دون مقاومة، أو أن يحدث صِدامٌ تتلاشى معه كلتا الموجتين.

لم يكن لديها ما تقوله. زادتْ حيرتها، بين الإشفاق على من جاءها مستسلماً، والتحفّز لمواصلة القتال.

لكنّ حديثه أعادها إليها، إلى معاركها التي اختارتها أو تلك التي فُرضت عليها.

ما جدوى كل ذلك؟

ألا يأتي الانتصار إلا نتيجة حرب ما؟ أما من سبيل لتحقيق ذلك دون المرور بكل هذا العناء؟

غربَت الشمس فهمّتْ بالمغادرة، غير أنّه أمسك بيدها، لكن هذه المرة دون قسوة.

ظلّ ممسكاً بيدها، بينما أشار بالأخرى إلى أول سيارة أجرة صادفته:

««اكسبو» لو سمحت».

سألته عمّا سيفعلانه هناك فلم يُجِب.

مضَت السيارة وهو يحدّق عبر زجاج النافذة. بدا كمن نسي وجودها، لولا أن يده لا تزال تمسك بها بالتحفّز ذاته.

شقّت السيارة شارع الحرية متجاوزة مكتبة «أوقت» المركزية، حتى بلغتْ فندق الإنتركونتيننتال فانحرفتْ يساراً في طريق ضيّق انتهى بمجمَّع «اكسبو».

توقفَت السيارة أمام المجمع الكبير، فترجّل الطبيب وهو يسحب الفتاة وراءه وكأنه إزاء مهمة مقدسة لا تحتمل الخطأ.

أخذ يتجاوز المراقص والبارات حتى توقف أمام أحدها. نظر إليها أخيراً دون أن ينطق، وكأنه يختبر استعدادها قبل خوض معركة حاسمة.

لم تُجبه، كانت قد أتقنت الدور الذي رسمه لها، أن تنقاد كالغائبة عن الوعي، أن تمنحه حرية أن يسلب حريتها، ويبدو أنه تنبّه لهذا الأمر فزاد شعوره بسير المهمة بالنجاح المبتغى.

على مدخل المرقص، صادفا فتاة تخرج رفقة شاب وهي

تتأبط ذراعه بدلال مبالغ فيه، لكنها ما إن خرجتْ تماماً حتى تركتْ ذراعه بطريقة ميكانيكية، قبل أن يستقلا سوياً سيارة أجرة، غادرت بهما مسرعة.

ظلّ الطبيب يراقب المشهد حتى غابَت السيارة تماماً. التفتَ إلى الفتاة، وكأنه يتأكد أنها تابعتْ معه ما جرى.

دخلا فاصطدمَت الفتاة بالأجواء نصف المعتمة، والأضواء الملونة التي تتراقص في كل اتجاه، دون أن تمحي عتمة المكان، أو تتركه يغرق في ظلام كامل. بدا أن مهمة الأضواء هنا هي ترك المكان في حالة بين الضوء والعتمة، بينما بدا الطبيب معتاداً جداً على المكان. أزعجها ضجيج المكان وازدحامه. أجساد متلاصقة تذرع المكان في كل اتجاه، وتتحلّق حول ساحة دائرية أكثر ازدحاماً بالراقصين.

لم يسبق لها ارتياد مرقص في حياتها، لم تكن تظنّ أن بمقدور أسمرا الرتيبة أن تستوعب هذا القدر من الصخب والازدحام في أحشائها.

اختار مكاناً بالكاد يسعهما ويطلّ على ساحة الرقص، وما إن استقرا في مكانهما، حتى نظر إليها ونطق أخيراً:

«أنا آسف لأني جلبتكِ إلى هذا المكان دون أخذ رأيك، لكنه سيخبرك الكثير بأقل الكلمات».

أومأتْ برأسها دون أن تتحدث، كانت لا تزال تحت وقع سطوة المكان، وتحت تأثير الدور الذي أتقنت لعبه منذ قدومهما

معاً. ثم إنها لم ترد أن تصرخ كما فعل هو ليُسمعها كلماته المقتضبة، فصخب الموسيقى كان يحجب كل قدرة على وصول أي صوت آخر دون صراخ.

«لعلك تلاحظين بشاعة المكان، لكن لا أحد غيرك يفعل. الجميع هنا تجاوز هذا الأمر مع الوقت، لا أحد يشعر به حتى، ولهذا هم هنا باستمرار».

لم تُجِبْه أيضاً. اكتفتْ بالتحديق في الوجوه البلهاء، والأجساد المترنحة.

«جميلة هذه الأغنية».

بذلتْ جهداً لتسمع ما قاله شاب متأنق إلى جوارها. أعاد كلامه، فأشارتْ برأسها موافقة. استغربتْ قليلاً كيف يتحدث إليها بهذه الأريحية دون معرفة سابقة. لم يكن يتقرّب منها، كان فقط يبدي ملاحظة عابرة بكلّ لطف. وافقته، دون أن تسمع الأغنية. كانت الموسيقى أعلى من قدرتها على الإحاطة بكلماتها، بدا ألّا أحد يهتم بذلك أصلاً، كان الضجيج هدفاً بحدّ ذاته. والرقص المجنون، قلة مَن يحسنونه، بينما الجميع يمارسه بنشوة طاغية.

شعرت أنها تجاوزتْ رهبة البداية حين بدأت تعتاد على الضجيج، هنا أصبحتْ ملاحظتها أكثر حدة. لم يكن الأمر يتعلق بالموسيقى، بقدر ما يدور حول الجسد. كان المكان ساحة لعرض الأجساد السمراء والبيضاء وتلك الغائمة بينهما.

كانت الفتيات يجهدن للفت الانتباه. لم يكن ينقصهن

الجمال، لكن المنافسة كانت حامية. بعضهن يفعلن ذلك بالرقص، بالتمايل بغنج ملفت، أخريات كنّ أكثر جرأة، حيث يقصدن الرجال مباشرة لعرض مفاتنهن، بينما اكتفت فتيات بالبقاء في أماكنهن، وهن يحاولن اصطياد زبائنهن بنظرات ساخنة.

عاد إليها الشاب الواقف جوارها، وهو يقدّم لها سيجارة. أخبرته أنها لا تُدخن. صمت قليلاً ثم عاد يعتذر إن كان يزعجها.

«لا. أبداً».

أدركتْ أنها دخلت في الأجواء أكثر ما إن غادرتْ صمتها.

كان الطبيب صامتاً بدوره يوزّع نظراته بين المكان وبينها، وكأنه يمنحها أخيراً حرية أن تصل لكل شيء بطريقتها.

مرّ شاب مخمور أمامها، بالكاد تحمله أقدامه، لكنه بدا حريصاً على التناغم مع الموسيقى الصاخبة، يحرك يده بتثاقل، فيشارك الراقصين جنونهم. التفت إلى فتاة في طريقه فرفع صوته بالغناء وكأنه يخاطبها، فاكتفتْ بمنحه ابتسامة فاترة.

مرّ شاب آخر متواضع الوسامة، فاستوقفته ابتسامة حسناء. نظر إليها بزهو، عدّل ياقته ثم غادر بخطوات واثقة. مرّ خمسيني فمنحته الفتاة الابتسامة ذاتها، مال عليها، وهو يهمس في أذنها. لم يمض وقت حتى غادرا سوياً.

«المسكين يحسب أنها وقعتْ في غرامه».

كان الشاب إلى جوارها مرة أخرى. لم تُجبه، فعاد يعتذر على إزعاجه من جديد. أرادتْ أن تُخبره أن اعتذاره الدائم هو المزعج، وأنه بدون ذلك سيبدو شخصاً طبيعياً، إذا تجاوزتْ بالطبع جرأته في الحديث إليها دون مقدمات.

عاد الشاب المخمور مرة أخرى، بدا أنه يطوف بالمكان. كانت خطواته قد زادت ثقلاً، لكن دون أن يفقد رغبته في الرقص. مرّ بالفتاة نفسها فرفع صوته بالغناء، فقابلته بالابتسامة نفسها. كان مشهداً مكرراً ومثيراً للضحك. التفتتْ إلى الطبيب فوجدته يراقب بابتسامة واسعة.

يمرّ شباب وسيمون بأجساد رياضية مصقولة وتسريحات شعر معتنى بها، غير أنهم لا يلفتون انتباه أي فتاة بين الحاضرين.

«هؤلاء أيضاً مساكين. كل هذه الوسامة لا قيمة لها. ما لم تكن جيوبهم ملأى، فإنهم في المكان الخطأ».

لم يخب توقّعها حين ختم الشاب إلى جوارها جملته بالاعتذار عن إزعاجه لها، فلم تعبأ حتى بالردّ عليه، ولم يشغله ذلك فيما يبدو.

«هذا يكفي، لنغادر».

عادتْ إلى دور الانقياد وهي تستجيب لأمر الطبيب. في الطريق سألها عن رأيها فيما رأته، لكنها أعادتْ له السؤال، فهو في النهاية مَن أراد قول شيء عبر كل ما حدث. جاءتْ إجابته متدفقة:

«هذا المكان بالغ البشاعة هو ملاذ المحبطين. يأتون هنا ليعيشوا أوهاماً جميلة، هنا يُصبح الواحد شاعراً ومطرباً وراقصاً ومشهوراً ووسيماً، والأهم من كل هذا؛ يصبح محبوباً ومرغوباً. ثمة تواطؤ جماعي على القبول بالأقنعة كملامح أصلية. لا أحد يبحث عمّا خلفها، الكل يقبل ويصدّق ما يراه.

لكن هل رأيتِ كيف تتصرف الجميلات. أعرف أنهنّ لسن جميلات وحسب، وأعرف أنّ هذا الوصف محل نظر، لكن لنتجاوز ذلك مؤقتاً، هل رأيتِ كيف يتصرفن؟

إنّ أقنعتهن مختلفة، منهن من تختار أن تبدو مبتذلة، وأخرى تكتفي بإثارة الخيال، لكنّ الساذج من يظنّهنّ مختلفات، إنهنّ فقط ينوّعن في الطريقة. تماماً كالباعة، حين يبيعون نفس الشيء، لكن مع اختلاف الأسلوب.

ما أردتُ قوله إن الجمال والقبح، هي مجرد أقنعة لأمور أخرى أكثر عمقاً وإنّ هذا المكان يُشبه إلى حدٍّ كبير الحياة التي نعيشها في الخارج، لكن مع قدر أكبر من الأقنعة وتواطؤ أكثر انضباطاً.

آه، ما دمنا نتحدث عن الأقنعة، ربما من المهم أن أخبرك أن الفتاة التي رأيناها في مدخل المرقص تتأبط ذراع رجل، لم تكن تفعل ذلك إلا لتصوِّرها كاميرا المكان وهي خارجة معه، بحيث يهتدون إلى الرجل في حال أصابها مكروه».

صمت الطبيب، وشاركته هي الصمت. اختار كل منهما

النافذة القريبة منه للتحديق في البعيد، رغم أن الزجاج كان يعكس لكل واحد منهما صورة الآخر.

كان الاثنان لا يزالان ينظران إلى نقطة بعيدة..

هذه المرة كانتْ داخلهما.

الشريط الثامن

(2)

تظاهرتْ بالانشغال في طباعة وثائق السيد الرئيس.

كان انتباهها في حقيقته منصبّاً على مكتب مدير الدائرة. كانت تبحث عن المكان الذي قد يضع فيه الوثائق غير المعدّلة. خلفه تماماً تتكدّس أوراق كثيرة في مكتبة كبيرة بواجهات زجاجية دون أقفال، تستند إلى طاولة خشبية عريضة بأدراج لها قفل واحد.

انتبهتْ متأخراً إلى أن المدير كان يُبقي مفاتيحه الكثيرة مُعلّقة بمفتاح في قلب ذلك القفل، لكنه لم يكن يُغادر المكتب إلا حين يتأكد من إغلاق القفل دون أن ينتزع المفتاح منه.

لا بد أن كنزها يتوسط هذه الأدراج، لكنّ الوصول له يبدو عسيراً، فلم يكن المدير يُغادر مكتبه إلا لأوقات قصيرة يعود بعدها ليسألها عن سير العمل. ولم يكن من المُجدي أن تتلصص على الوثائق في غيابه، فهي بحاجة إلى قراءتها بتأنٍّ، إلى الغوص فيها، إلى حفظها عن ظهر قلب. لكنّها في الوقت ذاته

بحاجة إلى فعل ذلك بأسرع ما يُمكن، حتى تتمكن من المقارنة بين الوثائق التي تعمل عليها، وبين حالها قبل التعديل.

أنهتْ يومها ذاك دون أن تهتدي إلى طريقة تُوصلها إلى وثائق السيد الرئيس، لكن دون أن تفقد إصرارها على ذلك أيضاً.

كانت الجدّة في انتظارها وقد عادتْ من رحلتها سريعاً. ألهاها الشوق قليلاً عن هواجسها، وراحتْ تغرف من أحاديث جدّتها التي جاءتْ بشوق مماثل.

حكتْ لها عن المرضى، عن السعادة التي تغمرهم مع كل زيارة، عن الامتنان الذي تراه في ملامحهم فتصدّه بكل حزم، فما تقوم به واجب لا يستدعي الامتنان.

كان كلّ يوم يمرّ تزداد معه الفتاة يقيناً بعظمة جدتها، وهي تبذل وقتها وجهدها في سبيل الآخرين. كان يُبهجها ذلك رغم أنّها تريد الجدّة لها وحدها دون الآخرين.

شعرتْ بالحَرَج إذ لم تجدْ في نفسها أي رغبة لتكون مثل جدّتها في هذا الأمر، ولم تكن لتفهم كيف يمكن للواحد أن يتقاسم مع الآخرين آلامهم، دون أن يضطره شيء لذلك. نطقتْ بسؤالها الأخير، فجاءها جواب بدا بعيداً:

«هل ترين حبّات القهوة هذه قبل أن تصطلي بحرارة الموقد؟ تأتي متكوّمة على بعضها في الإناء، لكن ما إن تصلها النار،

حتى تتقافز كلّ واحدة منها بمفردها. ألا يُشبه هذا حال البشر؟ هذا ما أُحاول تجنبه».

زادَ شعور الفتاة باختلافها عن جدّتها. لم تكن تعرف إذا كان هذا يخصّها وحدها، أم تتشارك فيه مع أمها. سألتْ جدّتها عن ذلك، وهي تُدرك أنّها تخرق حالة التواطؤ على التغافل عن هذه السيرة. فعلتْ ذلك كثيراً، وها هي تفعله الآن، دون أن تحظى بإجابة مختلفة، إذ لم تجد سوى كلمات مقتضبة والكثير من الشرود:

«أمك كانت أجمل روحاً، وأنتِ تُشبهينها كثيراً يا حبيبتي».

عادَت الجدّة إلى حكاياتها بعد لحظات صمت تجاوزتْ بها أثر سؤال الحفيدة، بينما لم تتوقف الفتاة كثيراً عند تهرّب الجدة الذي اعتادته. عوض ذلك كانت تتمنى لو تصرخ في العالم: لا تُفوّتوا حكايات الجدّات، لملموا ما يتناثر من ذاكرتهن المثقلة بالحكايات، فالحكايات حين تموت، قد تموت إلى الأبد.

«ألا ترغبين في أن أُعيد جدل ضفائرك مقونان؟»

جاوبَت الفتاة جدّتها بأنها ليست سعيدة بما يكفي حتى تكتسي مقونان السعداء، فجاء الردّ أن الضفائر المعقودة تجلب معها السعادة وتمنع انفكاكها.

امتدّتْ جلستهما لوقت متأخر من الليل، كانت الفتاة تعبُّ من الحكايات دون أن ترتوي، وكانت الجدّة بدورها تسكبُ دون ملل وهي تجدل شعر حفيدتها من منبته إلى منتهاه.

بقدر استمتاع الفتاة بالحكايات المجدولة، كان ثمة شيء آخر يُجبرها على البقاء أطول وقت ممكن خارج غرفتها، كانت في الحقيقة تتجنّب لقاء رجلها، تتجنب النظر في عينيه، في قوامه الفارع. كان حجم الأسئلة التي تملأ رأسها كفيلاً بإفساد الأثر الذي تنثره اللوحة في غرفتها كل ليلة.

عادتْ أخيراً، ودون أن تنظر في عينيه، دسّتْ نفسها في سريرها، لعلّ الغد يحمل أجوبة تُعيدها من جديد إلى تلك الملامح، وقد تخلّصتْ ممّا يحوم حولها من غموض.

الشريط التاسع

(1)

بدأتْ تشعر بالضيق، وهي ترى الأبواب كلها مغلقة أمام وصولها إلى وثائق السيد الرئيس غير المعدّلة. خرج مديرها من مكتبه عدة مرات دون أن تجرؤ على مجرد التفكير في المخاطرة بفتح الأدراج.

بينما هي غارقة في أفكارها دخلت مساعدة المدير في غيابه، واتجهتْ من فورها إلى الأدراج. خفق قلب الفتاة، وهي تتبع خطوات المساعدة حتى رأتها تستقرّ أمام الدرج الرئيس. لحقتْ بها فرأتها تُخرج مجموعة من الوثائق وتهمّ بالمغادرة. أدركتْ أنّها أمام فرصة لا تتكرر، فاستجمعتْ شجاعتها وباردتها:

«هل حان وقت إتلافها؟».

لمحَت الفتاة استغراب المساعدة من معرفتها بأمر إتلاف الوثائق، فسعتْ لتبديد ذلك بمجازفة أكبر:

«أخبرني المديرُ بأنكم تقومون بإتلاف هذه النسخ بشكل دوري، لكنه لم يقُل لي كيف تقومون بذلك».

كان الخوف قد تمكّن من الفتاة وهي تمضي قدماً في مجازفتها، أرادتْ أن يبدو كلّ شيء طبيعياً، لكنها كانت كمن يمشي على حبل رفيع وقد يُسقطها أي اهتزاز يبدو في ملامحها. كان لا بد لمحاولتها أن تكتمل قبل قدوم المدير، لم تحسب لذلك حساباً، ولم يَثنها ذلك عن الاستمرار في لعبتها الخطيرة.

بدا الارتياح على وجه مساعدة المدير وقد عرفتْ أنّ مديرها سبقها لإفشاء السر، فأجابتها قبل أن تُغادر وهي تعدّل من وضع نظارتها السميكة بطرف سبابتها:

«يقوم الساعي بحرقها في الفناء الخلفي للدائرة».

بلغَت المساعِدة باب المكتب مع قدوم المدير الذي اكتفى بنظرة سريعة على الأوراق قبل أن يستقر وراء مكتبه. زاد ارتباك الفتاة وهي ترى أن ثوانيَ قليلة منعَت انكشاف أمرها، لكنّ المهمة لم تكن قد انتهتْ بعد. استأذنتْ مديرها لدقائق قليلة، حملتْ حقيبتها، وتبعَت المساعِدة فرأتها تُسلّم الوثائق إلى الساعي الطاعن في السن وتغيب في أحد مكاتب الدائرة.

مجدداً كان الوقت يخنقها، فوصول الوثائق إلى النار يعني استحالة الاطّلاع عليها. وهي تظنّ أنها قد تُصادف بعض ما عملتْ عليه خلال الفترة الماضية، فتكون المقارنة أكثر جدوى.

تبعَت الساعي إلى الفناء الخلفي، وهي لا تدري كيف ستحصل على الوثائق، قبل أن تخطر لها فكرة مجنونة أخرى.

تناولتْ أوراقاً كانت في قلب إحدى الحاويات، ولحقتْ

بالساعي قبل وصوله إلى الفناء. كانت فكرتها تستند إلى تخمين بأن الساعي أمّي ولا يفرّق بين الأوراق التي يحملها.

«عفواً.. حدث خطأ بسيط، وقد أرسلتني مساعدة المدير لإعطائك هذه الأوراق عوض التي أخذتها».

كانتْ تدعو الله في سرّها ألّا يخيب توقعها، وهو ما حدث، فقد أعطاها الساعي الوثائق وأخذ التي لديها دون حتى أن يُناقشها. أحسّتْ أن استلطافه لها كان كافياً لتبديد أيّ شك لديه. غادرتْ مسرعة بوثائق السيد الرئيس وضربات قلبها تكاد تخرق صدرها. دخلتْ حمّام السيدات، وبدأتْ في تصفح الوثائق سريعاً. كانتْ هي. كوّمتها وحشرتها خلف مقعد الحمام، قبل أن تعود سريعاً إلى مكتب المدير.

جلستْ خلف مكتبها دون أن يُغادرها شعور الرهبة ممّا قامتْ به. جاهدتْ كي لا يبدو عليها التوتر، فغاصتْ بوجهها بين الوثائق المعدّلة وجهاز الكمبيوتر.

قام المدير من مكتبه، فزاد ارتباكها، غير أنها رأته يتجه نحو النافذة المفتوحة ويلقي نظرة سريعة قبل أن يعود إلى مكانه.

بدأتْ تصل إلى أنفها رائحة الأوراق المحروقة، فأدركتْ أن النافذة تُطلّ مباشرة على الفناء الخلفي.

عاد إليها قلقها وهي تُفكّر في مصير الوثائق المخبأة في الحمّام. خشيتْ أن يصل إليها أحدٌ قبلها فينكشف أمرها. أنّبتْ نفسها لعدم وضعها في حقيبتها، لكنها كانتْ تخشى حينها من

افتضاح أمرها لأي سبب. عبثاً حاولَت الانشغال بما بين يديها من وثائق دون جدوى. مرّ الوقتُ بطيئاً حتى حان موعد مغادرتها إلى مكتبها القديم.

لم تكد تجلس حتى طلبتْ من رئيس القسم أن يسمح لها بالانصراف، وتحجّجتْ بضغط العمل في مكتب المدير.

أسرعتْ باتجاه حمّام النساء فوجدته مشغولاً. عادتْ هواجسها أكثر قوة. بقيتْ أمام الباب. انتبهتْ إلى أن الحمّام المجاور شاغر، فسارعتْ إلى إغلاقه حتى يبدو مشغولاً، فيبرّر ذلك انتظارها.

لم يمرّ وقت طويل حتى انفتح الباب فرأتْ مساعدة المدير تخرج من الحمّام، ابتسمتْ بارتباك حاولتْ إخفاءه، ولم تشعر بالارتياح إلا حين لمحت يدي المساعدة الفارغتين. دخلتْ فوجدَت الوثائق في مكانها، وضعتها في الحقيبة، وانتظرتْ قليلاً، قبل أن تُغادر الدائرة سريعاً، وقد سكنها ابتهاج عارم بحصولها أخيراً على كنزها.

طوال الطريق إلى البيت كانت تتنازعها الرغبة بفتح الحقيبة وقراءة الوثائق، لكنّها قاومتْ ذلك بشدة. كان ثمة شعور بالإثارة وهي تؤجل هذه الرغبة الجامحة، كانتْ تريد أن تمنح الوثائق ما تستحقه من وقت وانتباه. شعرتْ أنه ينبغي ألّا يشاركها شيء متعة التلصُّص على وثائق السيد الرئيس، وثائقه الخالية من التعديل.

الشريط التاسع

(2)

أغلقَت الباب خلفها.

اختلتْ أخيراً بحقيبتها التي تحمل كنزها. شعرتْ ببعض تأنيب الضمير للطريقة التي دخلتْ بها إلى البيت، فقد كانت الجدّة في انتظارها، وفي عينيها رغبة كبيرة للكلام. سألتها عن يومها، غير أن الفتاة لم تكن تملك انتباهاً خارج حدود حقيبتها. ردّتْ باقتضاب وتعذّرتْ بشعورها ببعض الإرهاق ورغبتها في البقاء لوحدها لبعض الوقت. حاولَت الجدّة أن تستقصي عن الأمر، عرضتْ عليها أن تجلب لها شيئاً تأكله، لكنّ الفتاة رفضتْ بشيء من الحدّة ودخلتْ إلى الغرفة.

هناك كان ينتظرها السيد الرئيس مرتين، مرة في اللوحة الأثيرة إلى جوار سريرها، ومرة في الوثائق التي بين يديها. شعرتْ بحضوره الطاغي وقد أخذ يُحاصرها من كل جانب. للمرة الأولى بدا أن رجلها يُشبه الطبيب، تمنّتْ لو تعود المسافة لتُريحها من هذا القربُ الجريء المرهق. بدا أنّ الرجال جميعاً كذلك، ما إن يقتربوا، حتى ينتهكوا كل المساحات المتاحة. بدا

أكثر أنها لم تترك طبيعتها المَلوْلَة والنافرة من كل من يقترب أكثر من اللازم. لم تجد بدّاً من قلب اللوحة. للمرة الأولى تُغيّب رجلها ذي القوام الفارع تحت وطأة حضوره الزائد عن الحدّ. غيّبته، وبدأتْ في لقائه في مكان آخر، لكن، وقد تخفّفتْ كثيراً من سطوته.

تُرى هل حقّاً تُشبه الطبيب في سرعة تعلّقه وسرعة نفوره. لا. أبداً. فالطبيب ينفر نفور العاجز الذي لا يملك خياراً آخر، بينما يأتي نفورها دون سبب مفهوم. ألا يبدو هذا أكثر تعاسة؟

طردتْ هواجسها وعادتْ إلى الأوراق بين يديها.

باستثناء الاصفرار الذي كان يُحيط بجوانب الوثائق، لم يكن يشوبها أي تعديل. اختفى أخيراً الخطّ الجميل، وبدَت الأوراق عادية أكثر بخطوط مختلفة، لكن واضحة تماماً.

كانت المرة الأولى التي تنشغل فيها بمن كتبوا اليوميات التي غدَت اليوم وثائق بالغة الأهمية.

نظرتْ في الخطوط المختلفة، وهي تشي باختلاف أقدارهم. لم يكن المقاتل يكتب اسمه على يومياته، ربما لأنه كان يكتبها لنفسه، وربما لأن المقاتلين كانوا يتجنّبون ما أمكن اللجوء إلى التعليمات المكتوبة، وحين يفعلون يستخدمون الرموز والألقاب الشائعة للأفراد. ومع هذا انتبهتْ للمرة الأولى كم أنّ كل ورقة تحمل ملامح كاتبها وشخصيته المختلفة، كم أنّ كل مقاتل وضع في أوراقه كثيراً من روحه وعقله، ويأسه

واستبشاراته. فكّرتْ كم تبدو الوثائق أقرب إلى الحياة دون شطب أو تعديل، دون حتى كل ما تُضيفه دائرة الأرشفة من أرقام متسلسلة وشكل موحّد للوثائق، وأختام وتوقيعات، وإطار مُذهّب، يمنحها شكلها الصارم الموحي بالأهمية والصدق.

كان يكفي أن تُترك الوثائق كما هي، كما كتبها أصحابها. لا شيء أصدق من لحظة الولادة، وكلّ ما يليها هو تراكم للزيف ليس إلّا.

لكن مع هذا كانت تفتقد الألفة التي اعتادتها مع وثائق السيد الرئيس، خطّه الجميل الذي كان يستأثر باهتمامها، ويصبح لبّ الورقة لا هامشها.

بدّدتْ أفكارها المتضاربة وهي تأخذ أولى الأوراق وتبدأ في التهامها على مهل:

«كان القائد الكبير صديقاً مقرباً من الرجل القوي، نشآ سوياً، والتحقا بالنضال معاً، وقاتلا العدو جنباً إلى جنب. وكان يظهر لنا دائماً أنّ الرجل القوي يغار من رفيقه المعروف بالشجاعة والإقدام وكثيراً ما كان ينشب بينهما خلاف لأتفه الأسباب، وكان هذا واضحاً للجميع، دون أن يستطيع أحد من القادة الآخرين وضع حدٍّ له.

وفي ليلة بدتْ هادئة، سمع الجنود أصوات إطلاق نار في جهة جبل عقامت. حاول البعض التوجه من فورهم إلى المكان وتفقّد الأمر، غير أنّ الأوامر كانت صارمة بمنع الجنود من

الذهاب. استمرّ إطلاق الرصاص لعشر دقائق دون أن يتَّضح الموقف. في الصباح غادرتْ فرقة خاصة باتجاه الموقع، وحين عادتْ أخبرَت الجميع أن مجموعة من العدو حاولَت التسلل غير أن الثوّار تصدّوا لها وقتلوا كل أفرادها. بدا الأمر غريباً، خاصة حين بدأ يتسرّب ممّن كانوا قريبين من المكان ألا وجود لأي جثث أو أسلحة تعود للمهاجمين. من وقتها اختفى القائد الكبير، وأشاع الرجل القوي أنّ رفيقه في مهمة خارجية. استمرّ هذا الغياب لعامين، دون أن يحضر القائد الكبير أي اجتماع لقيادات التنظيم، وهذا لم يكن ليحدث أبداً مع رجل بحجم تأثيره، إلا أن الرجل القوي أعلن أخيراً استشهاد القائد الكبير دون أن يوضح مكان استشهاده أو كيفيته.

هنا عادتْ إلى الأذهان حادثة جبل عقامت، خاصة أنّ كل مَن كان شاهداً على ما حدث تم اغتياله، كما عرف الجنود لاحقاً أن حرس المكان قُتلوا قبل التمكّن من تحذير زملائهم، وهو ما يعني أن المهاجمين كانوا على علم بكلمة السرّ، لكن لم يجرؤ أحد على اتهام الرجل القويّ صراحة بقتل رفيقه، وإزاحته من طريقه، فالجميع يعرف بطشه وكيده الكبيرين.

قضى الرجل القويّ أياماً طويلة وهو في حزن على القائد الكبير، وكان حريصاً على تذكير الآخرين بذلك في كل مناسبة، حتى تلاشى تماماً الشعور بتورّطه في مقتل أحد أهم قادة التنظيم. زاد في ذلك أن الرجل القويّ اقترح جعل يوم استشهاد رفيقه مناسبة يتذكر فيها الجيش أحد قادته العظام».

لم تُصدّق الفتاة ما قرأته، بدَت الكلمات سكاكين تغرس سمّاً في قلبها. أعادتْ قراءة الوثيقة عدّة مرات، وهي تتمنى أن تجد شيئاً مختلفاً في كلّ مرة. شيء ينزع هذه السكاكين التي تُدمي روحها، وتذهب بيقينها في كلّ ما حولها.

لكن لماذا لا يكون كل شيء في هذه الوثيقة كاذباً، وهو ما جعل السيد الرئيس يقوم بتصحيحه؟ شتّتتها الحيرة. لا يُمكن لهذه الوثيقة أن تكون حقيقية، هي لا تُريدها أن تكون كذلك، هي تُريد ما قرأته في الوثيقة المعدّلة حتى لو كان كاذباً.

هي تُفضّل الآن الكذبة الأولى على كلّ الصدق الذي تلاها.

بصعوبة طوَت الوثيقة الأولى، وأمسكتْ بالثانية. كانتْ تختار الوثائق عشوائياً، لا ترتيب يعنيها. ترددتْ قبل أن تقرأ، هي لا ترغب في مضاعفة أوجاعها، ما قرأته يكفي ويفيض.

كانت الوثيقة الأخرى بخطّ مختلف، وهو ما حفّز فيها الرغبة لقراءتها، فما سيقوله صاحب هذه الوثيقة قد ينفي أكاذيب سابقه. بيدٍ مرتعشة أمسكتْ بالوثيقة، وشرعتْ في القراءة:

«ما لا يعرفه كثيرون عن الرجل القويّ أنّه لم يكن مقاتلاً شرساً وقائداً متسلّطاً فقط؛ فيده المدربة جيداً على معظم الأسلحة، كانتْ يد نحّات بارع أيضاً، لكنّه ورغم براعته في النحت، كان يتعمّد صنع تماثيل غاية في البشاعة، وكان يتلذّذ بذلك، ويُباهي بأعماله التي تلقى استغراب رفاقه. وكان يقضي

أوقات الراحة في ممارسة هوايته الغريبة في نحت المرمر. وكان يردِّد دائماً أنه لولا ظروف القتال، لكانتْ منحوتاته الآن تطوف العالم لفرط جمالها وتفرّدها.

وكان غريباً أنه اختار المرمر لممارسة هذه الهواية، رغم أن المرمر بطبعه حجر جميل مليء بالعروق الدقيقة الملوّنة التي تجري في ثناياه، ولا قيمة لحجر المرمر دون عروقه التي تمنحه في النهاية ما يُميّزه عن بقية الحجارة وهو لا يستحقّ كل هذا التشويه الذي كان يُدخله عليه. وكان كلّما انتهى من منحوتة يُخبر رفاقه أنه سيودعها في متحف أسمرا الوطني بمجرد حصول الاستقلال».

لم تستوعب الفتاة ما قرأته.

لم تدرِ لمَ يهوى السيد الرئيس صنع منحوتات بشعة، وهو قادر ببراعة يديه أن يُنجز أخرى جميلة. ولماذا إذا كانتْ هذه هي هوايته الغريبة عمد إلى تعديل الوثيقة؟ لماذا ادّعى أنّه كان مشغولاً بإخراج أعمال جميلة؟

لم تشأ أن تغرق في أسئلتها أكثر، تناولتْ وثيقة جديدة، وهي أكثر نهماً لدخول عالم السيد الرئيس رغم كل الشوك الذي يُحيط بالطريق إليه:

«يعرف الجميع فضل الأب الروحي على الرجل القويّ، فهو مَن قرّبه ومنحه فرصة التقدم في صفوف الجيش، لما رأى فيه من بوادر نبوغ لافتة، لكنّ الرجل القويّ كان كثيراً ما يُردِّد أنه

مَن صنع نفسه، وأن لا فضل لأحد عليه، وإن حدث فإنه لن يُقدّم أحداً على إرتريا، حتى لو كان ذلك يتعلّق بأقرب الناس إليه.

وكان معروفاً عن الأب الروحي قدرته الكبيرة على جمع الأموال لصالح الثورة، فقد استغلّ علاقته القوية بالدول العربية لتوفير أموال طائلة، لولاها لضاعَت الثورة في مهدها، لكن الرجل القويّ وآخرين كانوا يكرهون في الأب الروحي تمسّكه المبالغ فيه بالعلاقة بالعرب، وكانوا يرون في ذلك ارتباطاً طائفياً أكثر منه سعياً لإفادة الثورة. وقد حدث أكثر من مرة أن حاول الرجل القويّ أن يعترض على علاقات الأب الروحي، غير أنه كان يعدل في كل مرة عن مواجهته علانية. وعوض ذلك سعى لحشد الآراء ضده وهو ما نجح فيه أخيراً، فقد أصدرتْ قيادة الميدان بياناً كان الرجل القويّ هو من صاغه جاء فيه أن الأب الروحي أصبح عبئاً على الثورة، وأنه أخذ يُبدّد أموال الثورة بقرارات خاطئة، ما جعله يصطفّ إلى جانب خصوم النضال.

وانتهى البيان بالقرار الشهير الذي جمّد عضوية الأب الروحي في التنظيم، قبل اعتباره خصماً ينبغي التخلص منه في أقرب فرصة ممكنة.

وقد تمتْ تنحية الأب الروحي، وبهذا تخلّصت الثورة من أطراف كثيرة كانت تتلقى دعماً مباشراً منه، فضعفتْ قوتها، وخلَت الساحة أمام التنظيم لتحقيق الاستقلال بمفرده».

ملأَت الدموع عيني الفتاة. لم تقوَ على احتمال خيبة الأمل المتعاظمة. كان حلقها يزداد جفافاً وهي تتلقى الصفعة تلو الأخرى، ومع كل صفعة يتلاشى أيّ أمل في أن تكون الوثائق كاذبة.

أعادَت النظر إلى اللوحة الأثيرة، إلى ملامح السيد الرئيس. كانتْ تنظر بعين مختلفة. عين يملأها الشكّ والحزن، وحتى الغضب. بينما ويا للغرابة فقد حافظ على ملامحه كما هي؛ كان لا يزال مبتسماً، وله شارب كثّ، وبالقوام الفارع نفسه الذي لا نهاية له.

أعادها ما فعله السيد الرئيس إلى تعديلاتها على الوثائق البنيّة، لم يكن رجلها إذن يختلف عنها، لم تكن وحدها من يعبث في الوثائق، لكنّ محركها كان السأم، بينما تُحرّكه الرغبة في تجميل صورته، في تغييرها بالأحرى.

هل كان السيد الرئيس مولعاً بالحكايات مثلها؟

لكنّ حكاياته المسنّنة لم تُصبه بأذى، كان مُحصّناً فيما يبدو من أذاها. ربما لأنه لم يكتبها قط لنفسه، كان يُوجّه سهامها إلى الخارج، فنجتْ روحه بذلك، والحكايات التي لا نخلقها لذواتنا ابتداء، لا نشعر بها، لا نصطلي بنارها، بل نترك مشقة ذلك للآخرين. كم كان السيد الرئيس حكيماً وهو ينأى بنفسه عن الدمار الذي تقترفه يداه.

لا تعرف لماذا خطر ببالها الطبيب، وحوارهما الطويل حول

القبح والجمال. تجاوز السيد الرئيس كل معاركهما الوهمية وشرع مباشرة في إزالة قبحه، في التنصُّل منه. لكنه محا القبح بقبح أكبر. فكّرتْ كم كان الطبيب نبيلاً حين اختار قبح ملامحه، على أن يطول القبح داخله.

أكثر من ذلك؛ بدا الطبيب شجاعاً للغاية وهو يختار الحقيقة بكل مرارتها، عوض التقلّب في نعيم الزيف، وهو ما تجنّبه السيد الرئيس بكل جُبن. كان رجلها جباناً إذن، لم يقوَ للحظة على أن يواجه نفسه بأن ينظر في المرآة ويقبل الصورة المنعكسة أمامه، اختار الهرب إلى مرآة متشظية، لا تكاد تلتقط شيئاً من ملامحه الموغلة في القبح.

لكن ماذا عن بقية الوثائق؟

ماذا عن الوثائق البُنّيّة والصفراء والحمراء؟ هل يقتصر الأمر على تعديلاتها وتعديلات السيد الرئيس، أم أنّ آخرين يلعبون اللعبة نفسها؟

وماذا يتبقى حقيقياً بعد كلّ ذلك؟

ماذا عنها، عن بيتها، عن الجدّة؟

ماذا عن جمالها الطاغي؟

ماذا عن دائرة الأرشفة، عن مديرها ورئيس القسم؟

ماذا عن أطنان الوثائق التي ستغدو تأريخاً لا شكّ فيه؟

بدا الشعور بالزيف يغطّي كل شيء حولها، ويغمرها هي التي لا تختلف كثيراً عن السيد الرئيس، فكلاهما اختار شيئاً آخر غير حقيقي، رغم اختلاف الدوافع.

أعادتها هذه الفكرة من جديد إلى الطبيب، إلى جماله الحقيقي وهو يُقابل قبح عالمها.

هل يكون الطبيب هو الشيء الوحيد الحقيقيّ في حياتها؟

شعرتْ أنّها الآن إزاء النهاية المنطقية لتلك المعركة التي تجنَّبَت الخوض في مآلها، إزاء استسلامه، وقد بدا الآن نصراً متوهجاً.

انتبهتْ في غمرة ارتباك مشاعرها أن ثمة وثائق لم تقرأها. لم تجد رغبة مُلحّة في قراءتها. كانتْ خيبة الأمل قد بلغتْ منتهاها، ولم تشأ أن تنكأ مشاعرها أكثر. رمتْ بالوثائق بعيداً، فتناثرتْ في أرجاء الغرفة، نظرتْ إليها من جديد، كانتْ كمن تسخر منها، تضحك على هشاشتها، وتنخر كبرياءها بتلذُّذ ساديّ. اللوحات كانت تشاركها السخرية وقد حطّت بعض الأوراق عليها. لوحة السيد الرئيس بالذات كانت أكثرها حبوراً. هنا اختارتْ أن تُغيّبها مجدداً، أبعدتها عن السرير، اختارتْ لها زاوية مهملة ومزدحمة، وقلبتها على وجهها، فخفّ شعورها بالشماتة التي كانت تنبعث من اللوحة الأثيرة.

استحال بؤسها إلى ضحك هستيري، شعرتْ بالوثائق تُشاركها الضحك عليها، على تعاستها الطافحة. انتقلَت اللذة

إليها، رغبتْ في مضاعفة وجعها، في نشب أظافرها في كلّ جرح يأكل روحها، لكنّ ذلك لم يمنع شعورها بالشفقة على نفسها، وهي تخرج من معركة إلى أخرى، فثمة نهاية أخرى تنتظر حكايتها مع السيد الرئيس، مع رجلها، الذي كان يلعب لعبتها، بمتعة أكبر ربما.

الشريط العاشر

(1)

لم تكن يوماً متحفّزة لعملها كما هو حالها اليوم.

كان الغضب يشحنها بالرغبة في إنجاز أكبر قدر من الوثائق عن السيد الرئيس. استجاب مديرها لطلبها، فقدّم لها وثائق أكثر، وهو يُثني على تفانيها ويعدُها بترقية آخر العام إذا استمرّتْ على هذه المثابرة.

لم تتوقف كثيراً عند ما تقوله الوثائق المعدّلة، شعرتْ أنها غدتْ خبيرة بما يكفي بالطريقة التي كان يتعامل بها السيد الرئيس مع حكاياته؛ فكلّ كلمة مضافة تعني لها قدراً هائلاً من الزيف، وكل كلمة محجوبة، هي في المقابل تغييب لحقائق ومصائر أشخاص بكلّ ما عاشوه، أو ما تمنّوا عيشه.

شرعتْ في كتابة الوثائق بطريقتها، بكلماتها لا بكلمات السيد الرئيس.

عادتْ إلى عبثها دون شعور بالندم أو التردُّد. كبر اليقين بداخلها أن العبث بالحكايات أصبح قدَرَها الذي لا تملك الخلاص منه.

لكنّ أمراً آخر كان يدفعها للتعديل بقسوة في وثائق الرجل، إنه الانتقام منه والرغبة في هزيمته. أصبح الأمر شخصياً للغاية، وقد أدركتْ كم تعرّضت للخديعة على يده. خطر لها المِغزل العاجيّ مرة جديدة. هذه المرة هي من استدعته، هي من توسّلت نهايته الحادّة. لن تغوص عميقاً في رجلها دون استخدامه بلا رحمة.

بالغتْ في تبديل الكلمات، استدعتْ كل قاموسها العدواني والشرير، وغيّبت به كل الصفات الحسنة التي كان يُسبغها السيد الرئيس على نفسه، أو حتى يصفه بها الآخرون. وضعَت الخيانة في كل سطر تحدَّث عن أمانة الرجل، وانعدام الشرف كلما ورد ذكر المروءة. أدخلَت القبح والجبن وسوء الطويّة والغدر والضعف والخوَر والكذب والغرور والغباء وانعدام الحيلة والبلاهة. شعرتْ بالإعياء وهي تستنزف كلّ طاقتها اللغوية والجسدية في تشويه الرجل. لا. هي لم تكن تقوم بتشويهه، كانتْ فقط تُعيده إلى حقيقته، تُزيل عنه الأصباغ التي ما انفكّ يضعها على وجهه.

بدا الأمر ممتعاً للغاية، أكثر من أي مرة أخرى قامت فيها بتعديل الوثائق. كان الأمر هنا مُسلّياً للغاية. فالحكاية التي كتبها مناضل ما في لحظة صدق وهو يظنّ أنها ستظلّ على حالها إلى الأبد، جاء السيد الرئيس وعبث بها ليصنع حكايته الخاصة التي ظنّ أنها ستبقى هي الأخرى إلى الأبد، قبل أن يأتي دورها هي لتكتب الحكاية بطريقتها التي ستُبقيها إلى الأبد. ولا يبدو مهماً

إن جاء بعدها مَن يعبث بحكاياتها، فقد غامت المسافة بين الزيف والحقيقة في كلّ هذه الكلمات، ولم يعُد معروفاً على وجه الدقة أين ينتهي الصدق وأين يبدأ الكذب.

ملأها الرضا وهي تُنجز الوثيقة تلو الأخرى، تمنّتْ لو بمقدورها أن تُعيد كتابة كلّ وثائق السيد الرئيس، أن تتفرّغ بقية حياتها لملاحقة زيفه بزيف مماثل، أن تكتب تأريخاً يوازي التأريخ الذي أراده ويحلّ مكانه. بهذه الطريقة فقط ستكتب نهاية تليق بمعركتها معه، تلك المعركة التي لا ضحايا فيها، مجرمون فقط. هي وهو رأسا إجرام يتناطحان، دون أن يجمّل النصر بشاعة المنتصر، أو تُلقي الهزيمة بالخاسر في عداد الضحايا المستحقين التعاطف.

غادرت الدائرة مبتهجة بعد يوم طويل، رغم الإنهاك الذي طالها جرّاء تفريغ غضبها، دون أن تشعر بانزياحه تماماً، وكأنه مع كل محاولة للتخلص منه، يصبح أكبر وأقوى.

هذا الشعور قادها إلى وِجهة غير بيتها.

كانت سيارة الأجرة تمرّ بشارع أدال حين طلبت الفتاة من السائق أن ينحرف يميناً باتجاه شارع ماريام غمبي. عبرت السيارة شارع عدّي روسّو إلى محطة فيات التي تقع على رأس شارع ماريام غمبي، ومنها إلى السفارة البريطانية التي تتوسط الشارع، حيث كان المتحف الوطني يبعد عنها قرابة خمسمئة متر.

ترجّلَت الفتاة أمام المتحف تماماً. كانت المرة الأولى التي

تزوره فيها في مقره الجديد، بعد أن ارتادته كنشاط جامعي حين كان يقع ضمن المجمع الحكومي وسط المدينة.

بدا المكان هادئاً تماماً، فيلا متوسطة الحجم، منحتها حجارتها الحمراء القاتمة، وأشجارها الكثيفة مسحة أناقة. تجاوزَت البوابة البيضاء الصغيرة دون أن يستوقفها أحد، فقد كان كرسي الحارس خالياً. في الداخل كانت الإضاءة خافتة، عدا ما كان يقع على المعروضات؛ هياكل عظمية لحيوانات، أسلحة عتيقة، صور من معارك التحرير. لا تعرف لماذا خطر ببالها أن المتحف يُشبه كثيراً دائرة الأرشفة؛ رائحة التأريخ، واللون الرمادي الطاغي، لكن هل يتوقف التشابه عند هذا الحدّ أم يتجاوزه إلى العبث؟ هل نجتْ هذه المعروضات من التعديل؟ هل تعود إلى أصحابها؟ إلى الأزمان والأماكن التي عاشوا فيها، أم أنّ التحريف رمى بها إلى أناس آخرين بمسارات حياة مختلفة؟

كان كل شيء حولها قد طاله الشكّ في أحسن الأحوال.

من بعيد لمحتْ مجموعة السيد الرئيس، عرفتها من الوهلة الأولى، ليس لمكانها البارز، وطريقة العرض المعتنى بها وحسب، لكن لحجم البشاعة التي تنزّ عن المنحوتات الرخامية؛ وجوه بأعين كثيرة متباعدة، يد أطول من الأخرى، جبهة تعلو الذقن وتستند إليها بقية الملامح مقلوبة. فوق كل ذلك استقرّتْ صورته منهمكاً في مشغله، وبيده إزميل مغروس في قطعة مرمر لم تتشكّل بعد.

لاحظتْ نظرته الحادة النهمة للمرمر، وكأنه أمام فريسة

ينوي التهامها دون رحمة. تأملتْ يده القاسية، إزميله المشحوذ، وهو يطعن به قلب المرمر. لا تعرف لما تخيّلته ممسكاً بمِغزل عاجيّ ذي نهاية حادة، لا تعرف لما استحال المرمر بكرات صوف متناثرة. لم يكن السيد الرئيس يخلق منحوتاته أسوة ببقية الفنانين، بل كان يقتلها. منحوتات السيد الرئيس كانت ضحايا وقرابين لمتعته الخاصة. هكذا فعل بأصحابه، بالبلاد، وبها هي. كان بإمكانه أن ينحت كل ذلك بجمال يوازي براعة يده، لكنه اختار أن يُشوّه كل ما طاله، كان يغرف من داخله، دون أن يقلّ منسوب البشاعة لديه.

إلى جوار المنحوتات عُلّقتْ لوحة تحدثت عن السيد الرئيس وهوسه بالفنون، ما دعاه بمجرد حدوث الاستقلال لزيارة فولتيرا الإيطالية حيث تقع أقدم الأماكن التي اعتنت بالنحت على المرمر. هناك كان السيد الرئيس يمشي مبهوراً في شوارع المدينة الضيّقة المرصوفة بالحجارة، يتأمل البيوت العتيقة، وساحاتها العامة التي تزدحم بالمنحوتات؛ أسراب طيور، أحصنة مفعمة بالحيوية تثب مرحاً، وتماثيل بشرية جميلة قبل أن يصل بورتا ألاركو حيث المدخل المقوّس الذي كان أحد أسوار المدينة وذروة إبداعها في النحت.

بدا غريباً أنّ اللوحة المعلّقة تحتفي بالجمال الذي خلب لبّ السيد الرئيس، بينما كانت أعماله إلى جوارها تصنع عالماً موازياً يسير في اتجاه آخر.

الشريط العاشر

(2)

في غرفتها كانت تُفكّر في الطريقة التي تستطيع بها التفرّغ لوثائق السيد الرئيس، أن تنهي علاقتها بعملها القديم وتظلّ في مكتب مدير الدائرة، هي والرجل الذي اختار القدر أن يلعبا اللعبة ذاتها، بالمِغزل العاجيّ نفسه، مع تفاوت في الترتيب.

زيارة متحف المدينة، عزّزت لديها الرغبة في الانتقام، حدّدت تماماً ساحة معركتها القادمة، فعادتْ إلى بيتها أكثر ثباتاً وإصراراً.

أعادَت النظر إلى اللوحة الأثيرة، إلى صورة السيد الرئيس. هذه المرة كان موقفها أفضل. انتقلتْ إليها النظرات الشامتة التي استحالتْ ضحكاً متشفّياً، وقد أمعنتْ في تشويه صورته على الورق، لكن ويا للغرابة فقد حافظ السيد الرئيس على ملامحه كما هي؛ كان لا يزال مبتسماً، وله شارب كثّ، وبالقوام الفارع نفسه الذي لا نهاية له.

كانتْ لا تزال الوثائق الأصلية متناثرة في الغرفة تُعيد

تذكيرها بخيبتها، فيتعاظم غضبها. لملمَت الأوراق دون أن تحسم أمرها إن كانتْ ترغب في إتلافها أو الاحتفاظ بها.

انتهتْ من جمع الوثائق ورصّها دون ترتيب معيّن. ألقت نظرة على واجهة الأوراق. كانت إحدى الوثائق غير المقروءة. كان شعورها على حاله؛ لا ترغب في القراءة أكثر. غير أنها فكّرتْ أن انخراطها التامّ في اللعبة يُحتّم عليها أن تعيشها بكل تفاصيلها، وكلّ وثيقة تطّلع عليها تكشف لها جانباً من شخصية خصمها الذي تتمتّع بإلحاق الهزيمة تلو الأخرى به.

تناولَت الوثيقة، وشرعتْ في قراءتها، هذه المرّة والابتسامة تعلو وجهها، فقد أرضت الفكرة الأخيرة غرورها، ومنحتها شعوراً بالتفوّق دارى مشاعر الخيبة لديها:

«لم يكن شيء يشغل القادة والجنود على حدٍّ سواء في أوقات راحتهم سوى الحديث عن حُسن المناضلة التي انضمّتْ مؤخراً إلى الميدان. منذ الأيام الأولى لمقدمها عرف الجميع عائلتها ومسقط رأسها، ومستوى تعليمها، وقبل ذلك كله عدم ارتباطها بأي شخص حتى الآن.

كان جمالها من ذاك النوع الذي يأسر الأبصار منذ اللحظة الأولى، ولم يكن ممكناً تجاهل فتنتها حتى وهي في أقسى ظروف الحرب، شيء فيها كان يتجاوز الملبس والزينة، شيء ينبع من داخلها فلا تعود بحاجة إلى أي تجمّل آخر.

وكانتْ إضافة إلى جمالها الطاغي بارعة في القتال تُحرّكها

شجاعة نادرة، فكثيراً ما كانتْ تطلب القتال في خطوط النار، حتى لفتت الأنظار أكثر إلى فرادتها والمستقبل الذي ينتظرها.

لم يجرؤ أي جنديّ على محاولة استمالتها، حين شاع تنافس القادة الكبار على كسب قلبها. وكان أشهر قانون في الميدان ألا يُنافس أصحاب الرتب الدنيا قادتهم على قلب فتاة. كانت قلوب الحسناوات محجوزة سلفاً لكبار الضباط.

وكانت الفتاة من جهتها متمنّعة للغاية، فلم تمنح أي ضابط أو جنديّ فرصة الاقتراب منها لغير دواعي القتال، ما جعل قلوب القادة تتأجج رغبة فيها.

وقد سعى الرجل القويّ بكل طاقته لاستمالتها، واستطاع بنفوذه أن يكفّ عنها محاولات بقية القادة، لكن محاولاته ذهبتْ سدى، فقد قامت الفتاة بصدّه مراراً، كان آخرها حين قامتْ بصفعه على الملأ، ومرّغتْ كبرياءه في التراب.

وحدث أن أصيبت الفتاة في إحدى المعارك فلزمتْ خيمتها لأيام للعلاج. وفي ليلة هرع الجنود إلى الخيمة تحت وقع صراخها، فوجدوا الرجل القويّ خارجاً من عندها وهو يأمرهم بالعودة إلى أماكنهم. شاع بعدها أنه اغتصبها عقاباً لها، لكن لم يجرؤ أحد على مواجهته بذلك.

لم تمرّ أشهر حتى تأكد الجميع ممّا حدث حين رأوا انتفاخ بطن الفتاة، التي كانتْ قد تغيّرتْ كثيراً وخفّ وهجها فاعتزلَت الناس، ورفضتْ في الوقت نفسه تسريحها، وهو الأمر الذي ردّه الجنود إلى خشيتها من عائلتها.

وحين أنجبتْ طفلتها، كان أول ما طلبته أن يأخذوا الرضيعة بعيداً عنها، لكنهم ما إن يفعلوا ذلك حتى تجهش في البكاء وهي تطلبها، ليعيدوها، فتصرخ لإبعادها. استمرّ هذا الأمر طويلاً، وقد شاع تفسير لا يمكن الجزم به؛ أنّ مشاعرها كانت مضطربة تجاه الرضيعة، فأمام حنانها كأم، ورغبتها في ضمّ رضيعتها، كانتْ تتذكر حادثة الاغتصاب بكل بشاعتها ما إن تنظر في وجه الطفلة، فترى فيه ملامح الرجل القويّ. عزّز هذا الأمر أنّها ضُبطتْ وهي تحاول قتل الرجل القويّ أثناء نومه، فصدرت بحقّها عقوبة مشدّدة، غير أنّ الرجل القويّ تدخل لتخفيفها شريطة أن يتم تسريحها، وهو ما تمّ أخيراً. حيث خفت ذكرها شيئاً فشيئاً.

وقد قيل إن المرأة قد حسمتْ صراعها النفسي أخيراً بأن تخلّتْ عن طفلتها لأمّها، واختفتْ دون أن يعرف أحد وجهتها».

زلزلَت الوثيقة كيانها.

فهي الوثيقة نفسها التي عبثتْ بها تحت وطأة غيرتها من حبيبة السيد الرئيس. ها هي المرأة التي شوّهتها برضى بالغ، كان السيد الرئيس قد سبقها إليها، فغرس في قلبها سمّه دون رحمة، ثم جاءتْ هي لتُكمل إجرامه بإجرام مماثل. يا لهذه المرأة المسكينة وقد جاءتها الطعنات من كل جانب.

شعرتْ بالصَغار وقد كانتْ تتسلّى بجثة منهكة، تُوغل فيها تمثيلاً وتشويهاً. ما أقسى هذا القلب الذي تحمله بين ضلوعها،

وقد اختار أن يقتل المرأة الحسناء مرتين، مرة حين لم يلتفتْ لأوجاعها، ومرة حين أعاد تمزيقها وهي الممزقة أصلاً.

ليتها هي مَن ماتتْ، عوض أن تكون القاتلة. ليتها كانت الضحية عوض أن تنوء بدماء المسكينة التي نثرتها على الورق دون شفقة.

ها هو العبث بالحكايات يعود ليلتفّ على رقبتها كثعبان جائع، يضغط على أوداجها بقسوة لا تُميتها، لكنّها في الوقت عينه تحرمها الحياة.

ماذا لو تمثّلَت المرأة أمامها الآن؟

كيف ستطيق النظر في عينيها الحزينتين؟ كيف ستُبرّر لها هذا البطش الذي نزعتْ به روحها؟ هل ستقول لها إنّها لم تكن تعرف؟ هل ستقول إنها كانتْ تعبث وحسب؟

هل يكفي هذا ليمسح الدماء التي تُلطّخ يديها الآن؟

أي قدر هذا الذي يرميها على طريق السيد الرئيس، لتسلك مساره القميء؟ يا الله كم تُشبه رجُلها. كم تُشبه إجرامه وغروره، وانعدام الرحمة في قلبه. كم تُشبه إصراره على تعليق المشانق بحقّ الأبرياء.

لكن هل هذا هو كل شيء؟

ألا تصلح هي الأخرى لتشتغل بالنحت مثله فتُنتج منحوتات بشعة مشوّهة؟ ألم تُخرج ضحايا وقرابين لمتعتها الخاصة؟

ألا يصلح هو ليغرس مِغزلاً عاجيّاً في قلب بكرات الصوف المسكينة؟

أيهما إذن النحّات بالفعل؟ أيهما يمضي شاهراً مِغزله؟

لا. هي لا تُشبه السيد الرئيس، هي تفوقه سوءاً.

فهو قد قتل المرأة ليُخفي إجرامه، بينما سدّدتْ هي طعناتها لتتباهى بجريمتها. كان يهرب من ضحيته، وكانتْ هي تسعى إليها بكل ترصّد. وشتّان بين الجريمتين.

أجالَت النظر في غرفتها. كانتْ تضيق عليها أكثر فأكثر، تشعر بالسقف يوشك أن يُطبق عليها، بالجدران تهرس أضلاعها ببطء قاتل. فكّرتْ في الصراخ، في طلب النجدة، لكن لماذا؟ هل تريد النجاة بفعلتها؟ هل ثمة حياة تصلح بعد كلّ الموت الذي نثرته من حولها؟

أحسّتْ بألم آخر قادم من بعيد يحرث الأرض نحو رأسها. أين سمعتْ بحكاية هذه المرأة المغلوبة على أمرها؟

لا. لا يمكن للأقدار أن تتواطأ لتوقع بها بهذه القسوة. هل هي..؟

لا.. لا. لن تكون الحفرة نفسها التي ظلّتْ تحفرها طوال عمرها، لتجد نفسها وقد هوتْ فيها إلى قاعها المظلم الحارق.

خرجتْ من فورها تحمل الوثيقة وهي تصرخ بجدّتها التي تلقّفتها عند الباب.

احتضنَت الجدّة بكلّ قوتها، أرادتْ أن تخترقها، أن تختفي فيها، أن تتلاشى فينتهي كل هذا العذاب. لم تُفلح كل محاولات الجدّة لتهدئتها، لفهم ما جرى على أقلّ تقدير. حتى جاء سؤال الفتاة أخيراً متقطّع الأوصال بفعل النشيج:

« هل هذه أمي؟».

التقطَت الجدّة الوثيقة بيد مرتعشة، بينما اليد الأخرى لا تزال تُطوّق حفيدتها. خفّ نشيج الفتاة وكأنها تمنح جدّتها فرصة للقراءة، أو تمنح نفسها فرصة انتظار الفاجعة بقلب متحفّز.

ساد صمت مهيب، أكثر من حاجة الجدّة إلى إتمام الوثيقة، وأقلّ من قدرة الفتاة على انتظار الجواب. كانت الفتاة تتمنى أن يتأخر ردّ الجدّة، ألا يأتي مطلقاً. تمنّتْ بصدق أن يتوقف الزمن دون هذه اللحظة، أو يتجاوزها على أقلّ تقدير.

تأخر الجواب أكثر..

ازداد تشبث الفتاة بجدّتها، وكأنها تلوذ بها. تشبثتْ بالجدّة أكثر، وقد أفلتتْ يدها الوثيقة اللعينة. تواطأ الاثنان على مقاومة اللحظة، على تعذيبها عوض الاستسلام لها. على التنصّل منها وإسقاطها من أعمارهما.

عادَت الفتاة إلى غرفتها يُثقل خطواتها الشعور بالعار. ضاق صدرها تحت وطأة المشاعر الكاربة. لم تُفلح محاولات الجدّة في التخفيف من مصيبتها وهي تُخبرها أن الوثيقة صدقتْ في أمور وكذبتْ في أخرى. قالتْ لها إن أمها لم تتخلّ عنها، وإنما

أعجزها المرض عن الاعتناء بطفلتها، وإنّ الموت وحده من فرّق بينهما.

لم يكن هذا ما يشغل ذهن الفتاة، لم تكن لتجرؤ على محاسبة أمّها وهي التي شوّهتها بتلذُّذ ممعِن. بدا جُرمها أكبر، حتى لو ووجه بتخليّ الأم عنها تحت ضغط مصيبتها، لكنّ المرارة لاحقتها وهي ترى العبث يلحق بحكاياتها، يُشوّه أجمل ما فيها. يتدخّل بقسوة ليبدّل الكلمات والمصائر، بأخرى شائكة، تُدمي روحها المنهكة أصلاً.

تسلَّل الزيف فاخلتط بكلّ شيء يخصّها حتى ضاعت ملامح الأشياء من حولها. بدأتْ تشكّ في كل شيء من حولها، تشكّ في وجودها، في هذه الحياة، في هذه التفاصيل، في جدّتها، أمها، والدها..

والدها، السيد الرئيس.

سيّد العبث في عالمها. الرجل الذي انتظرته مرتين، فخذلها في المرتين. آثر الانتصار عليها عوض الفوز بها، فباءَ الاثنان بالهزيمة، لكنّ هزيمتها أقسى وأنكى.

انتصر السيد الرئيس، وهُزم الأب، بينما كانت خسارتها مضاعَفة، ابنة وحبيبة.

أمسكتْ باللوحة الأثيرة، ومزّقتها بعنف كبير، نثرتْ أجزاءها في كلّ مكان. استغرقتْ في النشيج، وهي تُقطّع أوصال القوام الفارع، وتمحي نظرته والابتسامة والشارب الكثّ.

أخيراً فقد السيد الرئيس ملامحه الثابتة. لم تقوَ السنين على ذلك، وها هي الفتاة تفعل ذلك بكلّ يُسر، فقط لأنها أصبحتْ غاضبة.

قضَت الفتاة أياماً في غرفتها لا تبرحها. يمرّ الوقت وهي ساهمة في البعيد. تكالبتْ عليها مشاعر الشكّ والخيبة والهزيمة والغضب والخذلان.

تشعر بالذنب تارة، وبالرغبة العارمة في الانتقام تارة أخرى. بالاستسلام مرة، وبمواصلة الحرب مرة أخرى. تُفكّر بانكسار في أمها، لكنّ صورة السيد الرئيس تستفزّ غضبها، قبل أن تعاود الانكسار ما إن يحضر بصورته الجديدة؛ والدها.

اختلط شعورها تجاهه، ظلّ الغضب على حاله، لكنّ شيئاً أقوى منها كان يزاحم هذا الشعور. شيء ظلّت جائعة له طوال سنيّ عمرها الفائتة.

تذكر أنها كثيراً ما تمنّتْ وجود والدها في حياتها، وجوده بأيّ شكل. أبٌ سيئ موجود أفضل ألف مرة من كلّ الآباء الطيبين الغائبين.

ما إن تكاد تستقرّ على هذا الخاطر، حتى يُعاودها الشعور بالخذلان مع صورة السيد الرئيس. كانت بحاجة إلى شيء يشطر ذهنها شطرين، بحيث يُبقي تأثير السيد الرئيس بعيداً عن والدها.

بدأت تراه شخصَين، شخصاً قبيحاً لا يُطاق، يستدعي كل أحقاد الدنيا، وآخر يُمكن التماس العُذر له ككل الآباء السيئين.

أنهكتها هذه المراوحة بين أن تغفر، وبين أن تطلب ثأرها لآخر العمر. بدتْ هي الأخرى وكأنها شخصان لا يُشبه أحدهما الآخر.

عمّقتْ هذه المشاعر من انفصالها عن الوقت، وخلقتْ لها وقتها الخاص، أو بالأحرى لحظتها الخاصة. شعرتْ أنها إزاء لحظة مختلفة لا تُشبه ما مضى من عمرها ولا ما هو آتٍ. قذفتْ بها هذه الفكرة لمحاولة الجمع بين شطرَي ذهنها، ستُحبّ وتكره في آن معاً، ستنتقم من السيد الرئيس وتغفر لوالدها، ستقتل سيّد الزيف، لكن من فرط احتضانه. ستطوّق رقبته بذراعيها هاتين، ستتجنب يده، لن تلمس أقسى ما فيه، لا تريد أن تعبث بسرّ عظمته. ستمدّ يدها العارية كي تستأثر بلحظتها، كي لا يشاركها شيء لذة الالتحام برجلها.

كانت المرة الأولى التي تشعر فيها برغبة في الخروج. أخذتها أقدامها نحو السوق. كانت الشوارع مزدانة بالأعلام واللافتات قبيل يوم من ذكرى الاستقلال. صور والدها، السيد الرئيس، تملأ الجنبات، وتطالعها من كلّ اتجاه. ابتسامته التي لا تشيخ على حالها. يبتسم لها، ينظر في عينيها وحدها. لا تقاوم رغبتها في النظر في عينيه، لا تزال تحت تأثير لحظتها المختلفة. ترى شيئاً في عينه اليمنى، وشيئاً مختلفاً في اليسرى. مثلها تماماً بدا وكأنه انساق للّحظة المختلفة، فأصبح الوالد والسيد الرئيس في آنٍ معاً.

لمحتْ عطرها المعتاد، لكنه لم يكن يُناسب هذه اللحظة.

أشارتْ فقط من بعيد إلى قنينة زهرية، أراد البائع أن يسكب قليلاً منه على يدها كي تختبره، لكنها أخذته دون أن تشمّ رائحته. وضعته في حقيبتها على عجل كمن يُخبّئ مفاجأة سارة لنفسه. كان هذا ما تريده بالضبط؛ هي اليوم أمام لحظة مختلفة لا تُشبه أيامها السابقة. أمام لحظتها الأسمى، ما جعلها تبحثُ عن حالة جديدة تلائم مزاجاً لم تعهده. ولم يكن بمقدور شيء أن يفعل ذلك سوى عطر جديد، عطر لم تجهد في اختياره. هي إزاء النهاية التي تليق بقصتها، فالنهايات التي نختارها وهمٌ كبير. العبرة دوماً بالنهايات التي تختارنا.

هي الآن إذن إزاء الليلة الأخيرة.

ولليلة الأخيرة دائماً مذاقٌ مختلف!

«النهاية»

كنز الطبيب

ثمة أمر هنا ليس معلوماً على وجه الدقّة.

إذ ليس معلوماً، إذا كانت الحكاية قد انتهتْ بالفعل عند الصفحة السابقة، أم أنّ ما سيأتي هو تتمّة لها. كما أنّه ليس معلوماً إذا ما كان سبب ذلك هو تعرّض الحكاية لبعض التعديل. وإن حدث هذا بالفعل، وهو وارد على أية حال، فلا أحد يدري إن كانت الحكاية السابقة هي الأصل، أم ما تمّ تعديله. وليس معلوماً أيضاً مَن الفاعل، ولا إنْ كان تعديله قد تمّ بالحذف أم بالإضافة. وإذا حدث هذا، وهو وارد على أية حال، فليس معلوماً أيضاً إنْ كان هو الوحيد الذي عبث بهذه الحكاية، أم تبعه أشخاص آخرون. وحتى حين ينتهي ما سيأتي هنا، فلا أحد يعرف على وجه الدقّة إن كانت هذه بالفعل هي نهاية الحكاية.

ففي مكان آخر من العاصمة، كان الطبيب يشعرُ أنه وقع على كنز ثمين. استجمع شجاعته ورفع سمّاعة الهاتف ليطلب رقماً لطالما أراد أن يجد مبرراً ليتصل به.

على الطرف الآخر، سمع صوتاً ناعماً أربكه قليلاً قبل أن يبادر بثبات:

«لديّ معلومات هامّة قد يرغبُ سيادته في سماعها».

غابتْ محدِّثته لدقائق تخيّل فيها التغيير الذي سيطرأ في حياته؛ سيودّع هذا المشفى البائس، ليرأس المشفى المركزي في البلاد، أو يلمع حظه فيُعيّن وزيراً للصحة، وحينها ستكون أولى قراراته هي الانتقام من مديره الحالي، بفصله عن عمله، أو نقله إلى عيادة خرِبة في أقاصي البلاد. أوغل في أحلامه فتخيّل التحاقه بطاقم الرئاسة الطبّي، ومن يدري فقد يلفتُ نظر الرئيس ببراعته فيقرّبه ليكون طبيبه الخاص.

عاد إليه الصوت الأنثوي فأخرجه من خيالاته بجملة مقتضبة:

«احضر حالاً.. سيادته في انتظارك».

أغلقَت الفتاة الخطّ، لكنه ظلّ ممسكاً بالسمّاعة، وعينه تجوب المكان.

كان يريد أن يُلقيَ نظرة وداع على مكتبه التعيس قبل أن يُغادره إلى الأبد. شعر أن وضع السمّاعة هي المسافة التي تفصله عن تحقيق أحلامه، ولا بأس أن يتريّث قليلاً. أراد أن ينتقم من حياته البائسة، أن يُعذّبها كما عذّبته، قبل أن يستبدلها بأخرى تليق بما يستحق، أن يُغادرها على مهل، فيستنزف صبرها، كما فعلتْ معه طوال سنواته الغابرة.

فكّر أنه أخيراً سيتمّ الالتفات إلى وسامته التي طمسها فقره، ونفّر منه الفتيات. لكنّه في حياته الجديدة سيبدّل العشيقات

الحسناوات كما يفعلُ مع جواربه، لن يرضى بالدميمات منهن، سينتقم من كل حسناء ازدرتْ فقره ولم تلتفت لوسامته.

خلع رداءه الأبيض، وارتدى بدلته الوحيدة المهترئة، وغادر مكتبه مسرعاً.

أشار إلى أوّل سيارة أجرة قابلته، فمشواره لا ترتاده الحافلات للأسف، لكن لا يهمّ، فلن يعود بعد اليوم مضطراً للانحشار في الحافلات المكتظة. سيودّع الفقر ويشتري سيارة جديدة، يجوب بها شوارع أسمرا التي لطالما أذلّته وأبْلتْ أحذيته.

ارتبك السائق ما إن سمع بوجهة الطبيب قبل أن يعتذر بلطف ويغادر على عجل. لا يُغضبه ذلك، فقد ظنّ السائق أنه موظف هناك. شعر بالزهو، فها هي الناس بدأت تشعر بأهميته حتى قبل أن يُصبح مهمّاً بالفعل.

توقفتْ سيارة أجرة أخرى ابتسم صاحبها بلؤم ما إن سمع بالوجهة التي تقع في ضواحي أسمرا. استقرّ الطبيب في المقعد الخلفي وانطلقَت السيارة مسرعة. سلك السائق طريقاً مختلفة، فنبهه الطبيب إلى خطئه، غير أن السائق قاطعه بأنه يعرف المكان جيداً وأنه يسلك طريقاً ستختصر عليه الكثير من الوقت. هنا انتقل القلق إلى الطبيب وقد لمس اعتياد السائق على هذا المشوار.

توقفت السيارة أمام بوابة كبيرة، فطلب السائق من الطبيب أن يُجهّز أوراقه الثبوتية. تقدم جنديّ منهما وما إن لمح السائق

حتى حيّاه بودّ، قبل أن يتفحص أوراق الطبيب ويسأله عمّن ينوي مقابلته. نطق بالاسم متلعثماً، فغاب الجنديّ لبعض الوقت. مال السائق إلى الوراء وقد عادت له ابتسامة اللؤم:

«لستَ سهلاً».

عاد الجنديّ ومعه بطاقة زائر منحها للطبيب في مقابل هويته وشرع في تفتيشه. لاحظ الطبيب أن الجنديّ لم يسأل عن أوراق السائق ولم يقُم بتفتيشه.

مضَت السيارة في طريق متعرّجة نحو تلة محاطة بالأشجار، توقفتْ خلالها عدة مرات في نقاط تفتيش، تكرر فيها تفحّص بطاقة الطبيب وسؤاله عن وجهته.

توقفَت السيارة أخيراً أمام مبنى من ثلاثة طوابق. دفع الطبيب الأجرة وهمّ بالنزول غير أن السائق بادره باللؤم ذاته:

«ستجد مكتبه في الطابق الثاني، على يمينك مباشرة».

اكتفى الطبيب بابتسامة مرتبكة وقد أيقن أنه كان برفقة أحد عناصر جهاز الاستخبارات. دخل المبنى متعرّقاً ولم تفلح أجهزة التكييف في تجفيف عرقه. استقبلته فتاة بابتسامة محايدة، خمّن أنها مَن حادثته على الهاتف وطلبتْ منه الانتظار ريثما تُخبر الضابط بقدومه.

زاد من ارتباكه صمت المكان المطبق. عدا ذلك كان المكان عاديّاً؛ أثاث بسيط لا يخلو من مسحة أناقة، صورة كبيرة للسيد الرئيس مبتسماً. تفحّص الوجه المبتسم وكأنه باشر مهامه

كطبيب خاص له. هنا شعر ببعض الارتياح، وبدأ في استحضار ما سيقوله للضابط الكبير.

عادَت الفتاة بالابتسامة ذاتها وهي تطلب منه الدخول.

خلف مكتب لا يختلف في بساطته عن بقية أثاث المبنى استقبله بترحاب رجل خمسيني بدين، بنظارة سميكة، وملامح احتار في توصيفها. لم يكن الضابط مُخيفاً، لكنه في الوقت ذاته لم يكن مريحاً. ثمة شيء في ملامحه يحجب عن الطبيب رؤيته كما هو، كبقية الناس.

انتهتْ سريعاً فترة التعارف، فصمتَ الضابط. شعر الطبيب أن لحظته المنتظرة قد حانتْ. استجمع شجاعته وبدأ في سرد ما لديه:

«هناك فتاة أشرف على علاجها في المشفى الذي أعمل به.

فتاة مقعدة نتيجة حادث سير تعرّضت له منذ سنوات. ساءتْ حالتها النفسية مؤخراً فأصبحتْ نصف مجنونة ونصف عاقلة. يُمكن القول إن حالتها ميؤوس منها. لا نعرف لها أهلاً باستثناء مسنّة من جمعية أصدقاء المرضى تزورها بين وقت وآخر، تهديها الملابس والشالات الصوفية، وتمضي معها بعض الوقت في سرد حكايات لا معنى لها للترويح عنها، أو تحاول تعليمها حياكة الصوف. ولا أعرف كيف تُطيق تلك المسنّة قضاء كلّ هذا الوقت معها، فهي فتاة دميمة، قصيرة ووجهها مليء بالبثور. أنفها قصير معكوف، وشعرها متآكل يبرز جبهة عريضة. ثم إن تصرفاتها غير مأمونة؛ فهي تبدو هادئة أحياناً ثم تنفجر في صراخ

لا ينتهي. لهذا يتجنبها العاملون في المشفى، ولولا احترامي لقيم مهنتي لما وافقتُ على الإشراف عليها».

لم تتغيّر ملامح الضابط، فشعر الطبيب أنه يتوجب عليه الإسراع في حكايته قبل نفاد صبر الضابط.

«أنا كطبيب بارع لا أكتفي بعلاج العلل الجسدية لدى مريضي، بل أهتمّ بنفسيته، وهذا ما جعلني ألتفتُ إلى الأمر الوحيد الجميل فيها: صوتها.

كان لها صوت ساحر ببحة خفيفة محبّبة، رغم لثغتها القبيحة في حرف السين. وكنتُ كثيراً ما أشيد به لأعينها على شقاء حياتها، لكنَّ ذلك فيما يبدو قد ورّطني فيما لم يكن في الحسبان. فقد تعلّقتْ بي الفتاة وظنّتْ أني وقعتُ في غرامها. وكما ترى فمن المستحيل أن يفكّر شخص بمثل وسامتي في فتاة مريضة ودميمة.

كان يُمكن لهذا الأمر أن يصرفني عنها تماماً، غير أن ذكائي وحسن تقديري أسعفاني في هذه الورطة. كما أن قلبي الرحيم منعني من صدّها بشكل فظّ، فآثرت الاستمرار في هذه الورطة على حساب أعصابي ومشاعري. وتحت وقع إطرائي لصوتها، طلبتْ مني الفتاة آلة تسجيل وعدداً من الأشرطة. ظننتها في البدء تُفكّر في الغناء. كل شيء كان متوقعاً من تلك الغبيّة، غير أنها كانتْ تملأ تلك الأشرطة بحديث لا معنى له، أو هكذا كنتُ أظن».

بدأ الضابط ينشغل بأوراق على مكتبه، فأيقن الطبيب أنه

على وشك أن يفقد اهتمام الضابط كليّاً، فبدأ في الجزء المهم من حديثه:

«تم استدعائي قبل أسبوعين إلى غرفتها على عجل، كانتْ تُعاني من تشنجات حادّة، حاولتُ علاجها عبر حقنها بالمهدئات للسيطرة على نوبتها. فعلتُ كل ما أستطيع غير أن حالتها كانتْ متدهورة للغاية، فماتتْ بين يديّ. الغريب أنها توفيت وعلى وجهها ابتسامة رضا لم أرَ مثلها من قبل.

الأسبوع الماضي جيء لي بأغراضها: صندوق به آلة التسجيل وعدد من الأشرطة المرقّمة ومِغزل عاجيّ بنهاية حادّة معقوفة، كي أسلّمه للمسنّة التي اعتادتْ زيارتها. لا أعرف ما الذي دعاني لتشغيل إحدى تلك الأشرطة؟ ربما الفضول، وربما شفقتي على إحدى مريضاتي، فأنا كما أخبرتك طبيب طيب القلب، ولا أتعامل مع مرضاي كأرقام. وهنا المفاجأة.

فقد كانت الفتاة طوال ما مضى من وقت تتحدث في تسجيلاتها عن وثائق تتعلّق بالسيد الرئيس، نعم السيد الرئيس، هل يمكن تخيّل ذلك؟

تتحدث عن تفاصيل دقيقة في حياته، وكأنها تعيش معه في البيت نفسه. عن تأريخه النضالي في حرب التحرير، وعن إدارته للبلاد. كانت تصفه بأمور لا أستطيع ذكرها، لكنها تُنبئ عن شخص يتحدث عن معرفة عميقة، وهذا ما جعلني أفكّر أن هذه الفتاة كانتْ على ارتباط وثيق بخليّة إرهابية لا تريد خيراً بهذه البلاد، استغلّتْ حالتها واستخدمتْها بطريقة ما. فلن يخطر ببال

أحد أن فتاة مقعدة ونصف مجنونة تشارك في مخطط لتدمير البلاد، عبر إيذاء السيد الرئيس. وهو كلّ ما نملك، ولن يتبقى من هذه البلاد شيء لو تعرّض لأي خطر لا سمح الله. ولا أعرف لماذا استعاضتْ عن الكتابة بالتسجيل؟ فأنا لا أعرف إن كانت تُحسن الكتابة أصلاً، رغم دهشتي حتى الآن من ذكائها الحادّ الذي أوضحته التسجيلات، دون أن ألحظه طوال إقامتها في المشفى. وربما يأتي اختيارها للتسجيل نتيجة إطرائي لصوتها وحسب».

لمح الطبيب تحفّزاً في عيني الضابط وقد ترك كل شيء وتفرّغ للاستماع له، فافترت شفتاه عن ابتسامة واثقة قبل أن يُكمل:

«حرصاً منّي على تعقّب الخلية الإرهابية، ولأني أعرف أن وقتكم لا يسمح بالاستماع لكل تلك الأشرطة، فقد قمتُ بتدوينها بالترتيب الذي وضعته الفتاة في هذه الأوراق.

لم أُفوّت شاردة ولا واردة مما قامتْ بتسجيله. غير أنّي استبدلتُ ضمير المتحدّث في تسجيلاتها بضمير الغائب، حتى لا يختلط الأمر بيني وبينها إذا ما وقعتْ هذه الأوراق في يد شخص آخر غيركم. وربما تلاحظون هنا أنّي أتمتع بحسّ أمنيّ عالٍ يؤهلني لخدمتكم في مهامّ أكبر.

ستلاحظون أيضاً أن الفتاة تتحدث عن حياة عاشتها خارج المشفى برفقة جدّتها، ولا أعرف متى حدث هذا، ربما قبل تعرّضها للحادث، لكن أين جدّتها هذه؟

كما أنها تُسبغ على نفسها صفات جمال لا تملكها، ولعلّ ذلك كله بغرض التمويه. وهي تأتي على ذكر طبيب يتعقبها ويزعجها، وأحمد الله أنه كان دميماً حتى لا يخطر ببالكم أنني المقصود بذلك.

ومن المهم أيضاً إخباركم أن تدوين هذه التسجيلات أخذ منّي جهداً ووقتاً كبيرين، وكان على حساب وظيفتي التي أُقدسّها، غير أني أجد نفسي دائماً وأبداً رهن خدمة البلاد عبر خدمة السيد الرئيس وخدمتكم، وأنا على يقين أنكم ستضعون ذلك محلّ اهتمامكم وعنايتكم كما عودتمونا دائماً. بقي أمر أخير.. يُخبرني حسّي الأمني أنّه قد يكون للمرأة المسنّة من دار رعاية المرضى علاقة بالخلية، ومَن يدري فقد تكون حلقة الوصل بينها وبين الأشرار، فهي الوحيدة التي كانتْ تزورها، وتتحدث إليها».

أنهى الطبيب جملته الأخيرة وهو يضع المغلّف على مكتب ضابط الاستخبارات الذي استلمه وهو يعدّل من وضعية نظارته السميكة وفتحه بعجل ليقرأ في الصفحة الأولى:

الشريط الأول

(1)

هذه الحياة مُملّة أكثر مما ينبغي..

حجي جابر

لعبة المِغزل

«لم تكن الفتاة تحكي لجدّتها طبيعة ما تقوم به تماماً، كانتْ تكتفي بإشارات عامة دون الغوص في التفاصيل. ولم تكن لتضعها في صورة عبثها بالوثائق ولا انجرافها وراء ما تحويه من حكايات. ولم تُشعرها أصلاً أن ثمة علاقة بين عملها واهتمامها المتأخر بالحكايات. لكنّها اليوم تتمنى لو تفعل ذلك، تتمنى لو تتحدث معها عن كل شيء يخصّ دائرة الأرشفة؛ عن مديرها ورئيس القسم، وعن زملائها، عن الوثائق البنيّة والحمراء، وعن الوثائق شديدة الأهمية، تلك التي تتحدث عن الرجل الوسيم فارع الطول ذي الشارب الكثّ، عن السيد الرئيس، الذي دلّها على خيارها العاطفي بوضوح شديد، وصبغ عملها ببهجة وافرة».

❖ ❖ ❖

حجي جابر، روائي إرتري من مواليد مدينة مصوع الساحلية. صدر له عن المركز الثقافي العربي، رواية **سمراويت** الحائزة على جائزة الشارقة للإبداع العربي 2012، ورواية **مرسى فاطمة** 2013.

لوحة الغلاف للفنان فرانسيس بيكابيا

ISBN 978-9953-68-783-4

9 789953 687834

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com